الفصل الثالث والعشرون

فايمار إبان ازدهارها

١٧٧٥ — ١٨٠٥

١ — تتمة لفيلاند : ١٧٧٥ — ١٨١٣

حين رأى موتسارات فيلاند فى مانهايم عام ١٧٧٧ قال فى وصف وجهه أنه « قبيح إلى حد مخيف ، تغشاه ندوب الجدرى ، وله أنف طويل ، . . . وفيما خلا هذا فهو . . . رجل موهوب جداً . . . والناس يحدقون فيه كأنه قد هبط من السماء» [١] . وقد كرهه طيور النوء الهائجون أنصار الحركة « الزوبعية » لأنه سخر من انتشاءاتهم المتمردة ؛ أما فايمار فأحبته لأنه لطف نقده اللاذع بالكياسة وبغفران عام للنوع الإنسانى ، ولأنه احتمل فى رضى تفجر النجوم الجديدة مراراً فى سماء الأدب بينما كان فى استطاعته أن يدعى لنفسه مكان الصدارة . وقد خلد جوته ذكره فى سيرته الذاتية بشعور العرفان بصنيعه [٢] . أما شيلر فقد خاله فى أول لقاء بينهما مغروراً محزوناً ، ولكن « الموقف الذى اتخذه منى للتو يدل على الثقة والحب والتقدير» [٣] .

وقال الشاعر الكبير للشاعر الفتى « سنفتح عما قليل قلبينا الواحد للآخر ، وسيساعد كل منا صاحبه بدوره » [٤] ، وقد أثبت وفاءه بهذا الوعد . « إنى وفيلاند نتقارب أكثر كل يوم . . . ولا تفوته مناسبة لا يذكرنى فيها بكلمة طيبة » [٥] .

وقد وفق فيلاند فى منافسته للوافدين الجدد بإصداره فى ١٧٨٠ رواية شعرية اسمها « أوبرون » تحكى قصة فارس تنقذه عصا أمير الجان السحرية من مائة جنية ومن شراك مفاتن ملكة اشتدت بها حرارة العشق . وحين

اضطر جوته إلى الجلوس لمصور يرسم صورته وأراد أن يقعد ساعة دون حركة ، طلب إلى فيلاند أن يقرأ عليه أجزاء من هذه الملحمة . يقول فيلاند « لم أشهد قط إنساناً سعد بعمل إنسان آخر كما سعد جوته » [٦] . وقد ترجم جون كوينسي آدمز القصيدة وهو سفير للولايات المتحدة فى بروسيا فى ١٧٩٧ — ١٨٠١ ، واقتبس منها جيمس بلانشيه نص أوبرا فيبر (١٨٢٦) .

واحتوى عدد مارس ١٧٩٨ من مجلة فيلاند « الرائد الألمانى الجديد» مقالة يحتمل أنها بقلم فيلاند — تنبأت بالأحداث المقبلة على نحو يلفت النظر . فقد لاحظت الفوضى التى تردت فيها فرنسا منذ ١٧٨٩ ، وأوصت بتعيين دكتاتور لها ، كما وقع فى الأزمات التى تعرضت لها روما الجمهورية ؛ ورشحت بونابرت الشاب ، الذى كان يواجه المتاعب يومئذ فى مصر ، بوصفه صالحاً لهذه المهمة بشكل واضح . وحين فتح نابليون ألمانيا فعلا التقى بفيلاند فى فايمار وفى ايرفورت (١٨٠٨) ، وتحدث معه فى أدب اليونان والرومان وتاريخهم ، وكرمه فيمن كرم من الكتاب الألمان بوصفه أعظمهم بعد جوته [٧] .

وفى ٢٥ يناير ١٨١٣ كتب جوته فى يوميته « دفن فيلاند اليوم » ثم أنهى النبأ إلى صديق فى كارلسباد قائلا : « لقد تركنا صديقنا الطيب فيلاند . ففى ٣ سبتمبر احتفلنا كما ألفنا كل عام بعيد ميلاده الثمانين بمظاهر الابتهاج . لقد كان فى حياته توازن بديع بين الهدوء والنشاط . فلقد أسهم بقدر هائل فى ثقافة الأمة العقلية فى ترو وأناة ملحوظين ، دون أى نضال مشبوب أو صراخ عال » [٨] .

٢ — هردر والتاريخ : ١٧٧٧ — ١٨٠٣

كتب شيلر فى يوليو ١٧٨٧ « لقد تركت هردر لتوى . . . أن حديثه رائع ، ولغته دافئة قوية ، ولكن مشاعره يراوحها الحب والكره » [٩] .

وكانت واجبات هردر فى فايمار متنوعة ، فلم تتح له متسعاً من الوقت للتأليف . فكان بصفته قسيساً خاصاً للدوق يقوم بواجبات العماد ، والتثبيت

فى الإيمان ، وعقد الزيجات والإشراف على الجنازات لأسرة الدوق وبلاطه . وبصفته المراقب العام للدوقية كان يشرف على سلوك الأكليروس وتعييناتهم ، ويحضر اجتماعات مجلس الكنيسة ويلقى عظات فيها من سلامة العقيدة القدر الذى تسمح به شكوكه الخاصة . وكانت مدارس الدوقية تحت إدارته ، فأصبحت نموذجاً تحتذيه ألمانيا كلها . هذه المسئوليات مضافاً إليها ناسوره وسوء صحته عموماً ، جعلته سريع الغضب وصبغت حديثه بين الحين والحين بما سماه جوته « اللدغة الخبيثة » [١٠] . وقد ظل ثلاث سنين (١٧٨٠ — ٨٣) هو وجوته يتجنب أحدهما صاحبه ؛ وقد أنكر الدوق بعض عظات هردر . قال جوته « بعد عظة كهذه لم يبق أمام أى أمير إلا الاعتزال » [١١] . وقال فيلاند اللطيف الطبع معلقاً فى ١٧٧٧ « وددت لو قام بينى وبين هردر اثنا عشر هرماً » [١٢] ، وتعلمت فايمار أن تلتمس المعاذير « الأكلينيكية » لقسيسها الشبيه بدين سويفت ، وردت زوجته اللطيفة كارولينه على بعض لدغه . وفى ٢٨ أغسطس ١٧٨٣ اغتنم جوته اتفاق وقوع عيد ميلاده وعيد ميلاد ابن هردر البكر فى يوم واحد ليدعو آل هردر للعشاء . واصطلح عضو المجلس الخاص والمراقب العام ، وكتب جوته يقول ان « السحب الكئيبة التى فرقت بيننا طويلا قد انجلت ، وإلى الأبد فى اعتقادى » [١٣] . وبعد شهر أضاف « لست أعرف رجلا أنبل قلباً أو أسمح روحاً » [١٤] ، وذكر شيلر فى ١٧٨٧ أن « هردر شديد الإعجاب بجوته — بل هو يكاد يعبده » . [١٥] وأصبح فيلاند وهردر فى الوقت المناسب صديقين متفاهمين [١٦] ، وكان هذان ، لا جوته ولا شيلر ، هما اللذين قادا الحديث فى صالون آنا أماليا واكتسبا قلب الدوقة الأرملة [١٧] .

وواصل هردر وسط واجباته الإدارية البحث فى الشعر البدائى ، وجمع عينات منه من نيف وعشرة شعوب ، ومن أورفيدس إلى أوسيان ، ونشرها فى « مختارات سماها Volksliede « أغانى شعبية » (١٧٧٨) أصبحت ينبوعاً من ينابيع الحركة الرومانتيكية فى ألمانيا . وبينما كان جوته يتهيأ لعودة إلى المثل والأشكال والأساليب الكلاسيكية ولضبط العقل للعاطفة ، كان هردر يشير بالانتفاض على عقلانية القرن الثامن عشر وشكلية القرن السابع عشر والعودة إلى إيمان العصر الوسيط وأساطيره وأناشيده وأساليب حياته .

obeikandl.com

وفى ١٧٧٨ عرضت الأكاديمية البافارية جائزة لأفضل مقال « فى آثار الشعر فى عادات الأمم وأخلاقها » . وفاز مقال هردر ونشرته الأكاديمية فى ١٧٨١ . وقد تتبع المقال ما رآه المؤلف تدهوراً للشعر بين العبرانيين واليونان والأوربيين الشماليين ، من التعبير الملحمى المبكر عن التاريخ والمشاعر والأفكار الشعبية فى إيقاعات طليقة فياضة ، إلى تدريب « مصقول » ومدرسى ، بعد المقاطع ، ويلوى القوافى ، ويقدس القواعد ، ويضيع حيوية الشعب وسط مظاهر الافتعال المميته التى تشوب حياة الحضر . وزعم هردر أن النهضة الأوربية قد انتزعت الأدب من الشعب وحبسته بعيداً فى قصور الملوك والأمراء ، وأن الطباعة قد احلت الكتاب محل المنشد الحى . وفى مقال آخر « فى روح الشعر العبرى » (١٧٨٣) اقترح هردر قراءة سفر التكوين على أنه شعر لا علم ، وكان قد تمكن من العبرية بجهده الخاص ؛ وألمع إلى أن شعراً كهذا يستطيع أن يحمل بالرمزية من الحقيقة قدر ما يحمله العلم بـ « الواقع » .

ولقد كافح إيمانه الدينى للصمود رغم سعة اطلاعه على الكتب العلمية والتاريخية . ففى عامه الأول فى فايمار اشتبه بعضهم فى أنه ملحد ، حر الفكر ، سوسينى ، صوفى [١٨] . وكان قد قرأ أجزاء « مخطوطة فولفنبوتل » لريماروس ، التى نشرها ليسنج ، وتأثر بها تأثراً كفى لتشكيكه فى لاهوت المسيح [١٩] . ولم يكن ملحداً ، ولكنه وافق على وحدة الوجود التى قال بها سبينوزا . قال لياكوبى فى ١٧٨٤ « لست أتبين إلها من وراء العالم المادى» [٢٠] وقد حذا حذو ليسنج فى دراسة سبينوزا والدفاع عنه ، « يجب أن أعترف أن هذه الفلسفة تسعدنى جداً » [٢١] . وقد كرس لسبينوزا الفصول الأولى من رسالة عنوانها « أحاديث عن الله » (١٧٨٧) ، فى هذا البحث فقد الله صورته الذاتية وأصبح قوة الكون وروحه ، الذى لا سبيل إلى معرفته إلا فى نظام العالم والوعى الروحى للإنسان [٢٢] . على أن هردر فى دراساته الموجهة إلى الأكليروس قبل الصفة الخارقة لمعجزات المسيح ، وخلود النفس [٢٣] .

ثم جمع العناصر المتفرقة لفلسفته وجعل منها كلا منسقاً نسبياً فى رائعة ضخمة سماها فى تواضع « أفكار نحو فلسفة فى تاريخ الإنسان » ، وهى

كتاب من كتب القرن الثامن عشر البزرية الخطيرة . صدر فى أربعة أجزاء فى ١٧٨٤ و ١٧٨٧ و١٧٩١ . وإشراف مشروع ضخم كهذا على التمام وسط مسئوليات هردر الرسمية يقوم شاهداً على الخلق القوى والزوجة الصالحة . وآية ذلك ماكتبه هردر إلى هامان فى ١٠ مايو ١٧٨٤ : « لم أؤلف طوال حياتى كتاباً كهذا وانا نهب للكثير من المتاعب وأسباب الإرهاق من الداخل ودواعى الإزعاج من الخارج ، بحيث أستطيع القول إنه لو لا أن زوجتى ، التى هى « المؤلف الحقيقى » لكتبى ، ولولا جوته الذى نظر مصادفة فى الجزء الأول — أقول لولا أنهما لم يفترا عن تشجيعى وحثى ، لظل كل شيء فى مثوى الكائنات التى لم تر النور»(٢٤) .

ويستهل الجزء الأول بقصة للخليقة ، دنيوية فى صراحة ، مبنية على الفلك والجيولوجيا المعروفين ، دون لجؤ للكتاب المقدس إلا بوصفه شعراً . وقد زعم أن الحياة لم تنشأ من المادة ، لأن المادة ذاتها حية . والجسم والعقل ليسا جوهرين منفصلين متضادين . إنما هما صورتان لقوة واحدة ، وكل خلية فى كل جسم حى تحتوى الصورتين إلى حد ما . وليس هناك قصد خارجى يمكن رؤيته فى الطبيعة ، ولكن هناك قصداً باطنياً — هو « التصميم الكامل » والباعث لكل بذرة أن تتطور إلى كائن نوعى بكل ما لها من أجزاء معقدة مميزة . وهردر لا يقول بأن الإنسان تطور من الحيوانات الدنيا ، ولكنه يراه عضواً فى المملكة الحيوانية ، يناضل كغيره من الكائنات للطعام والبقاء . وقد أصبح الإنسان إنساناً باتخاذه القامة المنتصبة ، مما طور فيه جهازاً للحس قائماً على البصر والسمع لا على الشم والذوق ؛ فغدت قوائمه الأمامية أيدى ، حرة فى القبض ، والاستعمال ، والاحتواء ، والتفكير . وأسمى ثمرات الله أو الطبيعة هو الذهن الواعى ، الفعال بتفكير وحرية ، المكتوب له الخلود .

ويبدأ الجزء الثانى من « الأفكار» بفرض يزعم أن الإنسان بطبيعته خير ، ويجدد القول بالتفوق والسعادة النسبيين للمجتمعات البدائية ، ويستنكر الفكرة الكانطية — الهيجلية فيما بعد — التى تزعم أن الدولة هى هدف التطور البشرى. وقد احتقر هردر الدولة كما عرفها . كتب يقول « فى الدول العظمى لابد

obeikandi.com

أن يتضور المئات جوعاً لكى يزهو فرد واحد ويتقلب فى النعيم ؛ أن عشرات الألوف يظلمون ويساقون إلى الموت لكى يستطيع أحمق أو عاقل متوج واحد أن يحقق حلمه »(٢٥) .

وفى الجزء الثالث امتدح هردر أثينا على ديمقراطيتها النسبية التى أتاحت للحضارة أن تنتشر فى كثير من طبقات السكان . أما روما التى أقامت ثراءها على الفتح والرق فقد طورت حضارة ضيقة خلفت الشعب فى الفقر والجهل . فى هذا التاريخ كله لم ير هردر أى « عناية إلهية » ، فهو أشر من أن يكون من عند الله . فالله ، الواحد مع الطبيعة ، يدع الأمور تجرى فى أعنتها وفق القانون الطبيعى وغباوة البشر . ومع ذلك فبحكم صراع البقاء ذاته ينبعث بعض التقدم من الفوضى ؛ فيطور العون المتبادل ، والنظام الاجتماعى ، والأخلاق ، والقانون ، كوسائل للبقاء ، ويتحرك الإنسان فى بطء صوب إنسانية رحيمة . لا لأن هناك خطاً متصلا للتقدم ، فهذا غير ممكن ، لأن كل حضارة قومية هى كيان فريد ، له طابعه المتأصل ، ولغته ، ودينه ، وناموسه الخلقى ، وأدبه وفنه ، وكل حضارة — شأنها شأن أى كائن حى — إذا استثنينا ما يطرأ عليها من حوادث عارضة — تنحو للنمو إلى نهايتها القصوى الطبيعية ، التى تضمحل بعدها وتموت . وليس هناك ضمان لتفوق الحضارات اللاحقة على السابقة ، ولكن اسهامات كل حضارة تنقل على نحو أفضل إلى الحضارات التى تخلفها . وهكذا ينمو التراث الإنسانى .

والجزء الرابع يمتدح المسيحية أما للمدنية الغربية . فالبابوية الوسيطة حققت هدفاً نافعاً يكبحها استبدادية الحكام والنزعة الفردية للدول ؛ والفلاسفة المدرسيون ، وان نسجوا نسيجاً واهياً أجوف بألفاظ ثقيلة ، إلا أنهم أرهفوا أدوات العقل ولغته . وجامعات العصر الوسيط جمعت وحفظت ونقلت الكثير من ثقافة اليونان والرومان ، بل بعض علوم العرب والفرس وفلسفتهم . وهكذا أصبح المجتمع الفكرى أكبر عدداً وأرهف حساً من أن يقوى عليه سدنة السلطة . وتحطمت أغلال العرف ، وأعلن العقل الحديث تحرره .

وحقق هردر فيما بين الجزئين الثالث والرابع من « الأفكار » حلمه الذى طال تأجيله برؤية إيطاليا . ذلك أن يوهان فريد ريش هوجو فون دالبرج ، المستشار الكاثوليكى الخاص لرئيس أساقفة ترير الناخب ، دعا هردر ليصحبه فى رحلة كبرى تدفع له فيها كل نفقاته . وأذن له دوق ساكسى — فايمار ، وكارولينه ، بالغياب ؛ فغادر فايمار فى ٧ أغسطس ١٧٨٨ . فلما لحق بدالبرج فى أوجزبرج وجد أن خليلة دالبرج عضو هام فى الجماعة . واجتمع على هردر وجودها ومطالبها ، وسوء صحته ، لتنغص عليه رحلته . وفى أكتوبر وصلت آنا أميليا إلى روما . فترك هردر دالبرج وانضم إلى بطانتها . وقد استلطف انجليكا كاوفمان استلطافاً أكثر مما ترضى عنه كارولينه ، وأسرفت رسائل كارولينه فى الكلام عن جوته والميل إليه . وعاد هردر لدغه ، وكان قد سمع أنباء عن حياة جوته فى روما . وكتب يقول « ان رحلتى هنا كشفت لى لسوء الحظ عن حياة جوته الأنانية على نحو أوضح مما كنت أتمنى ، وهى حياة فى صميمها لاتعبأ بالغير على الإطلاق . إنه لايملك غير هذا ، فلندعه وشأنه إذن . . » [٢٦] .

وعاد إلى فايمار فى ٩ يوليو ١٧٨٩ . وبعد خمسة أيام سقط الباستيل ، وغير هردر خططه فى التأليف . فأكمل الجزء الرابع من «الأفكار» ، ثم نحى الكتاب جانباً ، وكتب بدلا منه « رسائل لتقدم الإنسانية (١٧٩٣ — ٩٧) . وقد بدأها بتقريظ حذر للثورة الفرنسية ، ورحب بانهيار الإقطاع الفرنسى ، ولم يذرف دموعاً على علمنة الكنيسة الكاثوليكية فى فرنسا [٢٧] ، وحين انطلق الدوق وجوته لمواجهة الفرنسيين عند فالمى ، وعادا يجرران أذيال الهزيمة ، حبس هردر هذه « الرسائل » الأولى ، وخصص الباقى للثناء على الموتى من العباقرة الذين لا خوف من الثناء عليهم .

ولم يفقد فى شيخوخته شيئاً من لذة الصراع الفكرى . فقابل نقد كانط لكتاب « الأفكار » بهجوم حاد على « نقد العقل الخالص » . ووصف الكتاب بأنه تلاعب رهيب بالألفاظ الميتافيزيقية الأشباح ، مثل « الأحــكام التركيبية القبلية » ، وأنكر ذاتية المكان والزمان ، واتهم كانط بأنه أعاد إلى علم النفس فكرة الملكات ، التى زعم الفلاسفة

المدرسيون أن العقل ينقسم إليها . ثم المع ، فى تنبئو ، إلى أن الفلسفة قد تختط طريقاً جديداً بالتحليل المنطقى للغة—لأن الاستدلال ما هو إلا حديث باطنى .

وقد وافق جوته إلى حد كبير على نقد هردر لكانط ، ولكن هذا لم يعصمه من لدغة نصيبه منه بين الحين والحين . فحين أقام كلاهما تحت سقف واحد فى يينا عام ١٨٠٣ قرأ جوته على جماعة كان هردر واحداً منها أجزاء من مسرحيته الجديدة « الإبنة الطبيعية » (أى غير الشرعية) . وأثنى هردر على المسرحية للآخرين ، ولكن حين سأله المؤلف رأيه لم يستطع مقاومة الرد بتورية عن الصبى الذى ولدته خليلة جوته فقال : « انى أحب ابنك الطبيعى أكثر من ابنتك الطبيعية » ولم يستطب جوته الدعابة . وبعد ها لم يلتق الرجلان قط . واعتكف هردر فى خلوة بيته بفايمار ، ومات هناك فى ١٨ ديسمبر ١٨٠٣ — قبل شيلر بعامين ، وقبل فيلاند بعشرة ، وقبل جوته بتسعة وعشرين ودفن بأمر الدوق كارل أوجست — الذى كثيراً ما ضايقه هردر — بمراسم التكريم الكبير فى كنيسة القديسين بطرس وبولس.

٣ — جوته عضو المجلس الخاص

١٧٧٥ — ٧٦

لقى جوته فى فايمار ترحيباً من الجميع إلا السياسيين . كتب فيلاند إلى لافاتر فى ١٣ نوفمبر ١٧٧٥ « لابد لى من انبائك بأن جوته معنا منذ الثلاثاء الماضى ، وأنه لم تنقض ثلاثة أيام حتى شعرت بمحبة عميقة لهذا الشخص الرائع — فأنا أنفذ إلى أعماقه وأحسه وأفهمه تماماً — على نحو تستطيع أن تتخيله أفضل كثيراً مما أستطيع أن أصفه» (٢٨) . وفى الشهر نفسه كتب أحد رجال الحاشية إلى والدى جوته يقول « فكرا فى ابنكما كأوثق صديق لدوقنا العزيز ، . . . وهو محبوب إلى حد العبادة أيضاً من جميع السيدات من فضليات النساء فى هذه المنطقة »(٢٩) .

بيد أن سماء فايمار لم تخل من غيوم . ذلك أن الدوق كان يستطيب الصيد العنيف والإفراط فى الشراب ، وقد صاحبه جوته فيهما جميعاً أول الأمر ،

فاتهم كلوبشتوك الشاعر علانية بأنه يفسد أميراً فاضلا . وخشيت لويزه أن يقصى جوته زوجها عنها ، مع أن حقيقة الأمر أنه استخدم تأثيره لير د الدوق إلى الدوقة رغم أن زواجهما لم يكن زواج حب . وتشكك بعض الموظفين فى جرته باعتباره تابعاً متطرفاً من اتباع الحركة « الزوبعية » ذا معتقدات وثنية وأحلام رومانسية . وهجم على فايمار عدد من أنصار تلك الحركة — لنتن ، وكلنجر ، وغيرهما — وقدموا أنفسهم باعتبارهم أصدقاء جوته ، وطالبوا بالغنيمة . وحين استلطف جوته بيتا ذا حديقة خارج بوابة المدينة ولكنه قريب من قلعة الدوق — أفقد كارل أوجست جوته بعض عطف الرأى العام بإخلائه شاغلى البيت تمكيناً لجوته من الانتقال إليه (٢١ أبريل ١٧٧٦) . هناك تخفف الشاعر من مراسم البلاط ، وتعلم كيف يزرع الخضر والأزهار . وظل ثلاثة أعوام يسكن البيت على مدار السنة ، ثم فى الصيف فقط حتى ١٧٨٢ ، حين انتقل إلى قصر فسيح فى المدينة لينصرف إلى واجباته المتزايده بصفته عضواً فى الحكومة .

كان الدوق قد فكر فيه شاعراً ، ودعاه إلى فايمار ليكون كوكباً من كواكب الأدب فى بلاطه . ولكنه رأى أن مؤلف مسرحية ثائرة ورواية غرامية باكية ، هذا الكاتب الذى ناهز السادسة والعشرين ، أخذ يصبح رجلا ذا حكم عملى سديد . وعليه فقد عين جوته فى « مكتب للأشغال » ، وطلب إليه أن ينظر فى حالة المناجم فى الميناء وفى تشغيلها . وقام جوته بالمهمة بهمة وذكاء حملا كارل أوجست على التصميم على ضمه للمجلس الخاص الذى يدير شئون الدوقية . واحتج عضو قديم على تدفق الشعر على المجلس على هذا النحو الفجائى ، وهدد بالاستقالة . ولكن الدوق والدوقة الأرملة هدءا ثائرته ، وفى ١١ يونيو ١٧٧٦ أصبح جوته « عضو المجلس المختص بالتفويض الدبلوماسى » براتب سنوى قدره ألف ومائتا طالر . فقلل من مغازلاته للسيدات . وقد كتب فيلاند لميرك فى ٢٤ يناير يقول « منذ أمد طويل ، من اللحظة التى قرر فيها أن يكرس نفسه للدوق وشئون الدوق ، راح يسلك بحكمة مبرأة من الخطأ وبحذر الرجل الخبير بأمور الدنيا » (٣٠) . وفى ١٧٧٨ رقى إلى منصب وزير الحرب ، وكان يومها

منصباً هادئاً ، ثم إلى العضوية الكاملة للمجلس الخاص فى ١٧٩٩ . وقد حاول بعض الإصلاح ، ولكنه وجد نفسه معوقاً بالمصالح المكتسبة فى القمة ، واللامبالاة العامة فى القاعدة ، وما لبث هو نفسه أن بات محافظاً تام المحافظة . وفى ١٧٨١ عين رئيساً لغرفة الدوقية . وفى ١٧٨٢ خلع عليه يوزف الثانى براءة النبالة ، وغدا « فون » جوته . قال لأكرمان بعد خمسة وأربعين عاماً « فى تلك الأيام كنت أشعر بغاية الرضى عن نفسى بحيث اننى لوكنت رقيت أميراً لما وجدته تغييراً ذا بال » (٣١) .

وامتزجت بمستقبله السياسى قصة غرام كانت أبقى وأحر وآلم حب فى حياته . استمع إلى وصف الدكتور يوهان تسمرمان لإحدى مرضاه وصفاً لا يمت إلى الطب بسبب فى نوفمبر ١٧٧٥ .

« ان للبارونه فون شتين ، زوجة البارون ورئيس الخياله ، عيوناً نجلاء سوداء رائعة الجمال . وصوتها رقيق خافت . ولا يفوت أحداً أن يلحظ على وجهها سمات . . . الرزانة ، ودماثة الطبع ، واللطيف . . . والفضيلة ، والحساسية العميقة . أن آداب السلوك فى البلاط ، التى تملك ناصيتها إلى حد الكمال ، تحولت فيها إلى بساطة رفيعة نادرة . وهى نقية جداً ، ذات سمو روحى مؤثر يكاد يبلغ حد النشوة . ولا يستطيع المرء من مشيتها الأنيقة ومهارتها فى الرقص التى تقرب من مهارة المحترفين ان يستشف نور القمر الهادىء المطمئن . . . الذى يملأ قلبها بالسلام . أنها فى الثالثة والثلاثين ، ولها عدة أطفال ، وأعصابها ضعيفة . ووجنتاها ورديتان ، وشعرها فاحم ، وبشرتها . . . إيطالية اللون »(٣٢) .

وقد ولدت شارلوته فون شارت فى ١٧٤٢ ، وتزوجت البارون يوسياس جوتلوب فون شتين فى ١٧٦٤ . وفى ١٧٧٢ بلغ مجموع ما أنجبت من أطفال سبعة ، مات منهم أربعة . وحين التقى بها جوته كانت لاتزال تعانى من الحمل المتكرر ، وامتزج إحساسها بالضعف بما فطرت عليه من تواضع وحياء . ورفعها جوته فى خياله إلى السماء ، ولا غرو فقد كان فيه دم شاب وخيال شاعر ، ألف تجميل الواقع ونيط به هذا التجميل ، ومع ذلك لم يجاوز

ما قاله طبيبها فى تمجيدها . فقد كانت شيئاً جديداً فى بستان وروده النسائية : كانت ارستقراطية ، كأنما ركب السلوك المهذب فى فطرتها ، ورآها جوته كأنها من النفائس المذخورة فى قدس النبالة . وكان من ثمرات علاقتهما أنها نقلت إليه آداب طبقتها ، وعلمته ضبط النفس ، والطبيعية ، والاعتدال ، والمجاملة . وكانت شاكرة حبه إياها لأنه رد إليها اهتمامها بالحياة ، ولكنها قبلت هذا الحب كما تقبل امرأة كريمة المربى إعجاب فتى يصغرها بسبع سنين — باعتباره آلام النمو لروح متشوف يبحث عن التجربة وتحقيق الذات .

ولم يكن حباً من أول نظرة ، فبعد أن انضم إلى زمرة فايمار بستة أسابيع كان لايزال يقرض الشعر عن « الجميلة للى » شونمان (٣٣) . ولكن فى ٢٩ ديسمبر ١٧٧٥ ، لاحظ الدكتور تسمرمان تنبه جوته إلى « فضائل ومفاتن جديدة فى شارلوته » . وما حل ١٥ يناير حتى كان يحاول مقاومة افتتانه الوليد بها ، فقال لها « انى مسرور لأنى أبعد عنك وأفطم نفسى منك » ، ولكن لم يواف ٢٨ يناير حتى كان قد ألقى السلاح ، وكتب إليها يقول « ياملاكى الحبيب ، لن آتى إلى البلاط . ان بى من شعور السعادة ما لا أطيق معه كثرة الخلق . . . فأسمحى لى أن أحبك كما أفعل » . ثم كتب فى ٢٣ فبراير « يجب أن أخبرك أيتها المختارة بين النساء أنك ألقيت فى قلبى حباً يملؤنى بهجة » (٣٤) .

وردت برسائل كثيرة ، ولكن لم يبق منها غير واحدة من هذه الحقبة : « لقد عزلت نفسى بعيداً عن العالم ، ولكنه الآن يعود إلى عزيزا ، وعزيزا بسببك . ان قلبى يبكتنى وأنا أشعر انى أعذب نفسى وأعذبك . فقبل ستة أشهر كنت على أتم استعداد للموت ، وأنا لم أعد الآن مستعدة للقائه » (٣٥) . وملكته النشوة . فقال لفيلاند « ليس من تفسير لما تفعله هذه المرأة بى . . . إلا إذا قبلت نظرية التقمص . أجل ، لقد كنا يوماً ما رجلا وزوجته ! (٣٦) واتخذ لنفسه امتياز الأزواج فى الشجار والمصالحة . كتبت شارلوته إلى تسمرمان فى مايو ١٧٧٦ تقول : « لقد تركنى ثائراً قبل أسبوع ، ثم عاد بحب طاغ . . . فماذا هو صانع بى فى النهاية ؟ (٣٧) ويبدو أنها أصرت على أن يظل حبهما أفلاطونياً ، أما هو فكان به من حرارة العشق مالا يجعله

يترك حبهما عند هذا الحد ، فقال لها « ان امتنع على العيش معك فإن حبك لن ينفعنى بأكثر من حب غيرك الغائبات عنى »[٣٨] . ولكنه أردف فى الغد «اصفحى عنى أننى آلمتك . وسأحاول بعد اليوم أن أحتمل الألم وحدى »[٣٩] .

وشعر بالوحشة حين ذهبت إلى بيرمونت النائية فى الشمال للعلاج ، ولكنها زارته فى المينا وعند عودتها (٥ — ٦ أغسطس ١٧٧٦) . وكتب فى ٨ أغسطس يقول «كان لحضورك أثر عجيب فى . . . وحين أفكر أنك كنت هنا فى كهفى معى ، وإننى أمسكت بيدك وأنت تنحنين على . . . أرى صلتك بى مقدسة وغريبة معاً . . . فليس هناك كلام يعبر عنها ، وأعين الرجال لاتبصرها »[٤٠] . وكان لايزال حاراً فى حبه لها بعد أن انقضى على لقائهما الأول قرابة خمس سنين . ففى ١٢ سبتمبر ١٧٨٠ كتب وهو وحيد فى زلباخ «كلما استيقظت من أحلامى وجدتنى مازلت أحبك وأصبو إليك . والليلة بينما كنا راكبين ورأينا النوافذ المضاءة فى بيت أمامنا ، قلت فى نفسى ليتها هناك لتضيفنا . ان هذا المكان جحر حقير ، ومع ذلك فلو أننى استطعت أن أعيش هنا فى هدوء طوال الشتاء معك لأحببته كثيراً»[٤١] . ثم كتب فى ١٢ مارس ١٧٨١ :

« لقد امتزجت روحانا امتزاجاً جعلنى كما تعلمين مربوطاً بك رباطاً لافكاك منه ، ولن يفصلنا علو ولاعمق . وددت لو كان هناك قسم ما أو سر مقدس ما يربطنى بك على نحو مرئى ووفقاً لقانون ما . لكم يكون هذا رائعاً ! ولا شك أن فترة الاختبار كفانى طولها لانعام التفكير الواجب فى الأمر . . . أن اليهود يربطون زنارا حول أذرعتهم أثناء الصلاة . وهكذا أربط على ذراعى زنارك العزيز حين أوجه صلاتى إليك ، وأرغب إليك فى أن تنقلى إلى طيبتك وحكمتك واعتدالك وصبرك » .

وقد فسر بعضهم « فترة الاختبار» المنصرمة ، بأنها تشير إلى أن شارلوته أسلمت جسدها إليه »[٤٢] ، ومع ذلك كتب إليها بعد ست سنوات يقول .

« ياعزيزتى لوته ، أنت لا تعلمين أى عنف أوقعته بنفسى وما زلت أوقعه : وكيف أن فكرة عدم امتلاكى إياك . . . ترهقنى وتفنينى »[٤٣] . فإذا كان غرامهما قد اكتمل حقاً فإن السر قد كتم أحسن كتمان . وقد احتمل البارون فون شتين ، الذى عمر حتى ١٧٩٣ ، هذه العلاقة الغرامية بمجاملة جنتلمان من أهل القرن الثامن عشر . وكان جوته يختم خطاباته بين الحين والحين بعبارة « تحياتى إلى شتين »[٤٤] .

وقد تعلم أن يحب أطفالها أيضاً ، وكلما امتد به العمر اشتد شعوره بحرمانه من أطفال له . وفى ربيع ١٧٨٣ أقنعها بأن تسمح لابنها فرتز ذى السنين العشر بالإقامة معه فى زورات طويلة ، وحتى بمصاحبته فى رحلات طويلة . وفى أحد خطاباتها لفرتز (سبتمبر ١٧٨٣) يظهر جانب الأمومة فيها ، وتتكشف قلوب البشر الكامنة خلف واجهة التاريخ المجردة من عواطف البشر .

« اننى عظيمة الابتهاج لأنك لم تنسنى وأنت منطلق فى هذا العالم الجميل ، وأنك تكتب إلى بحروف لا بأس بها وإن لم يكن رسمها حسناً جداً . ومادمت تعتزم الإقامة أطول مما توقعت ، فإنى أخشى ألا تبدو ثيابك حسنة المظهر جداً . فإذا اتسخت واتسخت أنت أيضاً ، فاطلب إلى عضو المجلس الخاص جوته فقط أن يلقى بفرتزى الصغير الحبيب فى الماء . . . حاول أن تستمتع بفرصتك الطيبة ، واجتهد أن تسر عضو المجلس بسلوكك ، ووالدك يرغب إلى أن اقرئك تحيته »[٤٥] .

فإذا وافى عام ١٧٨٥ كان غرام جوته قد هدأت فورته فى فترات صمت طويلة . وفى مايو ١٧٨٦ شكت شارلوته من أن « جوته يفكر كثيراً ولا يقول شيئاً »[٤٦] . وكانت الآن تناهز الرابعة والأربعين ، أما هو ففى السابعة والثلاثين ، وكان آخذاً فى الانطواء على نفسه . كثير التردد على يينا هروباً من بلاط فايمار والتماساً لتجدد الشباب بين الطلاب . وكان قد اعتاد دائماً أن ينعش نفسه بالطبيعة ، فيتسلق قمة بروكن (وهى قمة ارتفاعها ٣,٧٤٧ قدماً فى جبال هارتس ، اقترنت منذ أمد بعيد بأسطورة فاوست) ، ويخرج فى

الخفية المنتشرة فى الطبيعة تعبيراً أقوى مما فى هذا الخيال السريع ، خيال الطفل المشرف على الموت ، الذى يرى « ملك العفاريت» آتياً ليخطفه من بين ذراعى أبيه ؟ .

فى هذه الحقبة أيضاً كتب جوته ثلاث مسرحيات نثرية : « اجمونت (١٧٧٥) وافجينى فى تاوريس (١٧٧٩) وتورقواتو تاسو (Torquato Tasso) (١٧٨٠) — وهى ثمر كاف لخمس سنين قضاها فى خضم السياسة . ولم تخرج « إجمونت» على المسرح إلا فى ١٧٨٨ ، أما إفجينى فقدمت على مسرح فايمار فى ٦ أبريل ١٧٧٩ (قبل العرض الأول لأوبرا جلوك التى بهذا الاسم بستة أسابيع (؛ ولكن جوته غير فيها وبدل ، ونظمها شعراً ، أثناء مقامه فى روما ، بحيث يحسن النظر إليها على أنها نتاج لمرحلة جوته الكلاسيكية . كذلك أعاد صياغة « تاسو» ونظمها شعراً فى إيطاليا ، ولكنها تدخل هنا جزءاً من افتتان جوته بشارلوته فون شتين . فى ١٩ أبريل ١٧٨١ كتب إليها يقول : « كل كلام تاسو موجه إليك »[٥١] . وصدقت كلامه ، فطابقت بينها وبين ليونورا ، وبين جوته وتاسو ، وبين كارل أوجست ودوق فرارا .

وقد تلقف جوته الأسطورة التى زعمت أن انهيار عقل تاسو فى بلاط فرارا قد اشتد ، ان لم يكن قد نشأ أصلا ، عن غرام تعس بأخت لألفونس الثانى (حكم ١٥٥٩ — ٩٧)[٥٢] . وما من شك فى أن جوته كان يفكر فى نفسه حين وصف ما يدور فى فكر تاسو الشعرى :

ان عينه قلما تطيل النظر إلى هذا المشهد الأرضى ،
أما أذنه فرهفة السمع لأنغام الطبيعة .
وأما صدره فيتلقى للتو فى ابتهاج
ما يقدمة التاريخ وتأتى به الحياة ،
ثم يجمع الأشتات المتفرقة ويربط بينها
ويبعث حسه الذكى الحياة فى الموتى .
وهكذا يغرينا الرجل العجيب

وهو يتحرك فى عالمه المسحور
بأن نطوف معه ونشاركه فرحه .
وهو يبدو كأنه يدنو منا ، إلا أنه يظل
بعيداً كما كان ، فإذا اتفق ووقعت عينه
علينا رأى الأشباح فى مكاننا (٥٣)

وقد تكون ليونورا ، الأميرة الجليلة التى ترتضى حب الشاعر ولكنها تأمره بأن يكبح حماسته ويراعى اللياقة ، هى شارلوته فون شتين تضبط غرام جوته المشبوب فى هذا العالم الفاسق ويعلن تاسو — وهنا يتكلم الشاعران كلاهما :

كل ما يصل إلى القلب من أغنيتى
فيتردد صداه فيه ، إنما أدين به لواحد ،
وواحد فقط ! فلم يحم حول روحى
طيف غامض ، يتقدم تارة
فى سناء باهر ، ثم يتوارى ثانية .
فأنا نفسى ، بعينى رأس ، أنا الذى أبصرت
مثال كل فضيلة وكل جمال (٥٤)

وأما الدوق الفونسو فهو شبيه كارل أوجست فى صبره على غضبات الشاعر وغرامياته وأحلام يقظته ، وهو مثله يحزنه تباطؤ الشاعر فى الفراغ من رائعة موعودة :

بعد كل خطوة بطيئة يدع عمله ،
لايفتأ يبدل ويغير ، ولا طاقة له على الانتهاء(٥٥) .

وهو وصف صادق لكتابة جوته المنجمة وإبطائه وتسويفه فى إنجاز « فلهم ما يستر » و « فاوست » . وأميرة أخرى تمتدح الفونسو كارل أوجست على إتاحته الفرصة لتاسو — جوته لينضج بممارسته لشئون الدنيا وهنا تعلو أبيات مشهورة :

« إن الموهبة تكون نفسها فى سكون »
والشخصية تتشكل فى نهر العالم »(٥٦) .

ولكن التلازم بين الشاعرين يتضاءل فى النهاية : فتاسو لايبدى شيئاً من قدرة جوته على السباحة فى نهر العالم ، فيغرق فى مملكة أحلامه ويضرب بالحذر واللياقة عرض الحائط ، ويحتضن الأميرة المذهولة بين ذراعيه ، ويجن جنونه حين تنتزع نفسها من ضمته ومن حياته . ولعل جوته أحس بأنه كان قد وقف على شفا هذا الجرف .

وكثيراً ما فكر فى إيطاليا ملاذاً يعتصم به من موقف يهدد سلامة عقله . وفى نحو هذه الفترة فى الصيغة الأولى لـ « فلهلم ما يستر » نظم لمينون أغنية شوق ولهفة تلائم آماله أكثر من آمال مينون :

أتعرف البلد الذى تزهـر فيه أشجار الليمـون ،
حيث تتوهج ثمار البرتقال الذهبية فى الأوراق الداكنة ،
حيث يهب النسيم العليل من السماء الزرقـاء ،
حيث تقوم شجرة الآس المطمئنة وشجرة النار السامقة
حيث تقوم شجرة الآس المطمئنة وشجرة الغار السامقة
أتعرفـه جيـداً ؟ هنـاك ! هنـاك !
اشتهى يـاحبيـبى ان انطلـق معـك !

لقد كانت فايمار جميلة ، ولكنها لم تكن دافئة . ثم ان هموم المنصب كدرت روح الشاعر ، « أنها لوسيلة مرة من وسائل كسب القوت أن يضطر المرء إلى محاولة خلق التناغم والانسجام بين نشازات العالم »[٥٧] . وقد أضنته حياة البلاط ، « ليس بينى وبين هؤلاء القوم ولا بينهم وبينى شىء مشترك يربطنا »[٥٨] . وكانت قد وقعت بعض الجفوة بينه وبين الدوق لعجزه عن مسايرة خطى الدوق فى الصيد والغزل ، وغرامه الكبير الوحيد قد براه الزمن وكثرة الشجار . فأحس أنه لابد له من التحرر من هذه الأصفاد الكثيرة ، والبحث عن اتجاه ونظرة جديدين . فطلب إلى الدوق أن يمنحه أجازة ، فاستجاب الدوق ، ووافق على أن يواصل دفع راتب جوته . ورغبة فى توفير مبلغ إضافى من المال باع جوته لجوشن ، الناشر الليبزجى ، حق نشر طبعة من مجموعة مؤلفاته . ولم يبع جوشن إلا ٦٠٢ نسخة ، فخسر ١,٧٢٠ طالرا فى هذه المغامرة .

وفى أول سبتمبر ١٧٨٦ كتب جوته إلى شارلوته من كارلسباد يقول :

« الآن وداعاً أخيراً ، أريد أن أكرر لك أنى أحبك حباً جماً . . . وأن تأكيدك لى انك تجدين من جديد لذة فى حبى يجدد فرحة حياتى . لقد احتملت الكثير فى صمت إلى الآن ، ولكنى لم أرغب فى شىء بأحر مما رغبت فى أن تتخذ علاقتنا صورة لايقوى عليها أى ظرف . فإذا لم يكن هذا ممكناً ، فلن ارتضى أن أسكن حيث تكونين ، بل أوثر أن أكون وحيداً فى ذلك العالم الذى انطلق إليه الآن[٥٩] .

٤ — جوته فى إيطاليا : ١٧٨٦ — ٨٨

واتخذ له فى رحلة اسماً مستعاراً هو « المسيو جان — فليب مولر » لأنه أراد التحرر من مضايقات الشهرة . وكان فى السابعة والثلاثين ، ولكنه ذهب بتطلع يفوق حتى تطلع الشباب وترقبه المرح ، وباستعداد يفضل كثيراً استعداد الشباب ، لأنه كان ملماً ببعض تاريخ إيطاليا وفنها . وفى ١٨ سبتمبر كتب إلى هردر يقول « آمل أن أعود شخصاً مولوداً من جديد» وكتب إلى كارل أوجست « أرجو أن أعيد معى إنساناً تطهر تماماً وتجهز تجهيزاً أفضل كثيراً من ذى قبل » . وإلى هذين وإلى غيرهما من الأصدقاء أرسل « رسائل من إيطاليا » مازالت تحوى نبض الحياة الإيطالية السريع . وقد قدم لها بالشعار القديم « Auch in Arkadien ـ هو أيضاً كان الآن فى أركاديا . وقد رأينا فى موضع آخر من الكتاب مبلغ شكره على ضوء الشمس . فقد صاح عند دخوله إيطاليا » إنى أومن بالله من جديد ! »[٦٠] ولكنه أحب الشعب الإيطالى أيضاً ، وجوههم وقلوبهم الطلقة ، وطبيعية حياتهم ، وحرارة حديثهم ومرحه . وإذ كان عالماً كما كان شاعراً ، فإنه لاحظ الخصائص الخاصة بالظواهر الجوية ، والتكوينات الجيولوجية ، والعينات المعدنية ، وأنواع الحيوان والنبات ، وأحب حتى السحالى المارقة فوق الصخور .

وبلغ من شدة شوقه للوصول إلى روما أنه مر مرور الكرام بفنيسيا ولمبارديا وتسكانيا ولكنه تلبث فى فتشنتسا وقتا كفى لأشعاره ببساطة معمار بلاديو وقوته الكلاسيكيتين . وعاد يؤكد من جديد نفوره من الطراز القوطى .

« لقد تحررت إلى الأبد — ولله الحمد — من كل ميل إلى تلك الأعمدة الشبيهة بقصبات التدخين ، وقلاعنا الصغيرة المتوجة بأبراج الكنائس ، والأطراف المورقة لمبانينا ! . . . لقد فسح بلاديو أمامى الطريق لكل . . . فن »(٦١) . وعاد بهذا الطريق إلى فتروفيوس الذى درسه فى طبعة أشرف عليها جاليانى ، صاحبنا الظريف القادم من نابلى وباريس . واستحال الطراز الكلاسيكى الآن غراماً عنده ، يلون كتاباته وفكره ، ويعيد صياغة بعض أناجيه القديم ، مثل « افجينى » و « تاسو » فى قالب وخط كلاسيكيين . وفى البندقية بدت قصور الباروك فى عينيه مسرفة فى البهرج ، مفرطة فى الأناقة النسائية ؛ لا بل إنه انصرف عن واجهات النهضة إلى أطلال العمائر والتماثيل الكلاسيكية فى المتاحف . ولكن دمه الحار تجاوب مع لون فيرونيزى وتتسيانو وكبريائهما .

وقد بحث فى فرار عبثاً عن القصر الذى حبس فيه تاسو . وبعد أن قضى ثلاثة أيام فى بولونيا وثلاث ساعات فقط فى فلورنسة انطلق حثيثاً عبر بروجه وتيرنى وتشيتا دى كاستيللو ، وفى ٢٩ أكتوبر ١٧٨٦ ركب إلى روما مخترقاً « البورتا ديل بوبولو » (بوابة الشعب) وأحس الآن بلحظة عابرة من التواضع « كل الطرق مفتوحة أمامى لأنى أسير بروح التواضع »(٦٢) .

وإذ لم يكن قد تمكن بعد من لغة الحديث الإيطالية ، فقد بحث عن الجالية الألمانية ، لاسيما الفنانين الألمان ، لأنه تطلع إلى أن يتعلم على الأقل أصول الرسم والتصوير والنحت . وأعجبت انجليكا كاوفمان بحماسته ووسامته فرسمته فى صورة أبرزت شعره الأسود وجبينه العالى وعينيه الصافيتين . وارتبط بصداقة حميمة مع يوهان هاينريش فلهلم تيشباين . الذى أسلمه لنا فى لوحته الشهيرة « جوته فى الريف »(٦٣) . يستلقى فى استرخاء كأنه فتح أركاديا . وكان جوته قد راسل هذا المصور قبل حضوره إلى إيطاليا بزمن طويل ، ثم التقيا لأول مرة فى ٣ نوفمبر ، حين اجتمعا فى « بياتسا سان بيترو (ميدان القديس بطرس) ، وتعرف الشاعر على الفنان ، وقدم إليه نفسه ببساطة « أنا جوته »(٦٤) ، ووصفه تيشباين فى خطاب إلى لافاتر بهذه العبارات :

« وجدته تماماً كما توقعت . ولم يدهشنى غير الرزانة والهدوء فى رجل له هذه الحساسية الناشطة ، ثم قدرته على الاسترخاء والتصرف بحرية فى جميع الظروف . وما يسرنى أكثر حتى من هذا هو بساطة حياته . فكل ما طلبه منى كان فى إعداد حجرة صغيرة يستطيع أن ينام فيها ويعمل دون إزعاج ؛ ثم أبسط الطعام . . . وهو يجلس الآن فى تلك الحجرة الصغيرة عاكفاً على قصة « افجينى » من الصباح الباكر إلى الساعة التاسعة . ثم يخرج لدراسة روائع الفن »(٦٥) .

وكثيراً ما كان تيشباين مرشداً له فى جولاته هذه ، ورتب تزويده بما طلب من الرسوم ، وحصل له على نسخ من الصور الأكثر شهرة . وقد رسم جوته بنفسه رسوماً تخطيطية للصور التى أراد تذكرها بنوع خاص . ثم جرب النحت ، ونحت رأساً لهرقول . واعترف بأنه غير موهوب فى الفنون التشكيلية ، ولكنه شعر أن هذه التجارب تعطيه إحساساً أفضل بالشكل ، وتساعده على تصور ما يريد وصفه(٦٦) . ثم أكب على كتاب فنكلمان « تاريخ الفن القديم » ، « هنا على الطبيعة أجده ثميناً جداً . . . والآن يستطيع عقلى فى النهاية أن يتسامى إلى أعظم وأنقى إبداعات الفن فى مأمن هادىء »(٦٧) . « إن تاريخ العالم كله يربط نفسه بهذه البقعة ، وأحسبنى ولدت . . . ولادة جديدة صادقة منذ اليوم الذى دخلت فيه روما . . . أظننى تغيرت إلى الصميم »(٦٨) . ويبدو أنه استمتع خلال ذلك بالفن الحى الذى قدمته الموديلان « اللذيذات » اللائى جلسن للمصورين فى مراسمهم(٦٩) . وأنهت إقامته فى روما ذلك التخلص من النزعة الرومانتيكية الذى بدأ بمسئوليات المنصب . وبدأ الآن تمرد جوتز على القانون ، ودموع فرتر ، فى نظر جوته الذى أخذ ينضج كأنها أمارات عقل غير متزن ، « ان الرومانتيكية مرض ، والكلاسيكية صحة »(٧٠) . وقد كان فى تحمسه الجديد للآثار الرخامية والأعمدة والتيجان والقواصر الكلاسيكية والخطوط النقية للتماثيل اليونانية مسحة رومانتيكية . « إذا شئنا حقاً نموذجاً نحتذيه ، فعلينا دائماً أن نرجع إلى قدماء اليونان ، الذين يتمثل فى أعمالهم دائماً جمال الإنسان »(٧١) . وقد رأى جوته ، كلما رأى فنكلمان ، الجانب « الأبوللونى » للحضارة

والفن اليونانيين فقط — تمجيد الشكل والقصد ، وكاد الآن يتجاهل تلك النشوة « الديونيسية » التى لونت الخلق والدين والحياة اليونانية تلويناً دافئاً جداً ، والتى أعربت فى جوته ذاته عن نفسها خلال « قرينه » وغرامياته .

فى هذا الوجد الكلاسيكى أعاد كتابة « افجينى فى تاوريس » شعراً (١٧٨٧) ، واعتزم أنه ينافس راسين ، لا بل يوربيدپس نفسه . وإذ كان قلبه لا يزال محتفظاً بجمرات النار التى أضرمتها فيه شارلوته فون شتين ، فقد سكب فى أحاديث الأميرة اليونانية شيئاً من رقة البارونة الألمانية وتمالكها نفسها . وروى القصة القديمة جداً ، بكل ما فيها من تعقيدات الميثولوجية والأنساب ، وزاد من حدة الدراما بتصويره الملك السكوذى تصويراً متعاطفاً ، وأقدم على تغيير الخاتمة لتتوافق مع الفكرة — النادرة بين اليونان — التى تزعم أن على الإنسان التزامات حتى للبرابرة (الهمج أوغير اليونان) . ولا يستطيع تقدير انجاز جوته حق قدره إلا الذين يقرءون الألمانية بطلاقة ، ومع ذلك قال ايبوليت تين ، وهو رجل فرنسى ، وناقد فذ ، خبير على على الأرجح بدرامات راسين : « انى لا أفضل أى عمل أدبى حديث على درامة جوته افجينى فى تاوريس »(٧٢) .

وقد أحيت ذكريات شارلوته فى هذه المسرحية ، ثم فى « تاسو » « أكثر منها ، اللتين أعاد كتابتهما فى روما ، شعوره من نحوها . لقد أصابها بجرح عميق هروبه المفاجىء إلى إيطاليا وتركه ولدها فى عهدة خادم ، فأعادت فرتز لفورها ، وطالبت جوته برد كل الرسائل التى كتبتها له . فكتب معتذراً من روما (٨ و١٣ و ٢٠ ديسمبر ١٧٨٦) ، وبعثت إليه (١٨ ديسمبر) بتذكرة فيها لوم « حلومر » فكان رده (٢٣ ديسمبر) « ليس فى طاقتى أن أصف لك كيف يدمى قلبى أنك مريضة ، ومريضة بسبب غلطتى . فاصفحى عنى . لقد صارعت أنا نفسى الموت والحياة ، وما من لسان يقوى على النطق بما كان يعتمل فى داخلى . « وأخيراً لانت . فكتب لها أول فبراير ١٧٨٧ « الآن أستطيع أن أنصرف إلى عملى وأنا أسعد مزاجاً لأننى تسلمت منك رسالة تقولين فيها انك تحبين رسائلى وتبتهجين بها » .

فى ذلك الشهر ذهب هو وتيشباين إلى نابلى وارتقى فيزوف مرتين ؛ وفى محاولته الثانية غطى ثوران صغير للبركان رأسه وكتفيه بالرماد . ووجد متعة عظمى فى الأطلال الكلاسيكية فى بومبي ، وبهت للجلال البسيط الذى رآه فى المعابد اليونانية ببايستوم . فلما عاد إلى روما ركب البحر إلى بلرمو ، ومضى ليدرس المعابد الكلاسيكية فى سجسته وجرجنتى (أجرجنتو) ، و وقف فى المعبد اليونانى بتاورمينا ، ثم قفل إلى روما فى شهر يونيو . فلما تعاظم افتتانه بـ « أروع مدينة فى العالم كله »[٧٣] . أقنع الدوق كارل أوجست بأن يواصل دفع راتبه حتى نهاية ١٧٨٧ . فلما ان نفدت المهلة راض نفسه ببطء على العودة إلى الشمال . فغادر روما فى ٢٥ أبريل ١٧٨٨ ، وسافر على مهل عبر فلورنسه وميلان وكومو حتى بلغ فايمار فى ١٨ يونيو. وكان كل يوم يتساءل كيف يستقبل الدوق ، والحاشية ، وشارلوته ، رجلا يحس أنه تبدل إنساناً آخر .

٥ — جوته فى الانتظار ١٧٨٨ — ١٧٩٤

كان الدوق قد عين رئيساً جديداً للمجلس بموافقة الشاعر الغائب ؛ والآن أعفى جوته بناء على طلبه من جميع واجباته الرسمية عدا منصب وزير التعليم ، ولم يخدم المجلس بعدها إلا بصفة استشارية . وكان الدوق لطيفاً معه ، ولكنه كان قد اتخذ اخصاء غيره ، ثم إنه لم تعجبه العواطف الشبيهة بالنزعات الجمهورية التى استشفها من « إجمونت » بعد أن أعاد الشاعر كتابتها . أما جمهور القراء فقد نسى جوته أوكاد ؛ وأقبل على شاعر جديد يدعى شيلر ، وصفق بحماسة لتمثيلية « اللصوص » الزاخرة بروح التمرد والعنف الذى اتسمت به الحركة « الزوبعية » ، والذى بدأ الآن سخيفاً فجا فى عين شاعر يتأهب للتبشير بالنظام والقصد الكلاسيكيين . وأما شارلوته فون شتين فقد استقبلته ببرود . وأنكرت طول غيابه ، وتمهله فى العودة ، وتحمسه المتصل لإيطاليا ، ولعلها سمعت بـ « موديلات » روما . كتبت تقول إن لقاءهما الأول عقب وصوله كان « زائفاً كل الزيف فى طابعه ، ولم نتبادل شيئاً غير الملل »[٧٤] . ورحلت لتقيم فترة فى كوخبرج ، وصار جوته حراً فى التفكير فى كرستيانه فولبيوس .

وقد دخلت هذه الفتاة حياته فى ١٢ يوليو ١٧٨٨ إذ حملت إليه رسالة من أخيها . وكانت فى الثالثة والعشرين ، تعمل فى مصنع للأزهار الصناعية ، وراع جوته منها روحها النضرة ، وعقلها البسيط ، وأنوثتها المتفتحة . فدعاها إلى بيته ذى الحديقة لتعمل مديرة للبيت ، وما لبث أن جعلها خليلة له . ولم تنل حظاً من التعليم ، وقال « انها لاتستطيع فهم الشعر إطلاقاً »[٧٥] ، ولكنها استسلمت له فى ثقة واطمئنان ، ومنحته تحقيق ذاته الجسدى الذى أنكرته عليه شارلوته فيما يبدو . وفى نوفمبر ١٧٨٩ ، حين أوشكت أن تصبح أما ، أخذها إلى بيته فى فايمار ، وجعلها زوجته علانية فى كل شىء إلا الإسم . وصدمت شارلوته والحاشية لتجاوزه الحدود الطبقية وعدم إخفائه العلاقة المحرمة . وقد أحزنه كثيراً هو وكرستيانه هذا الموقف ، ولكن الدوق المتمرس بالخليلات قام عرابا للطفل الذى ولد فى عيد الميلاد ١٧٨٩ ، وعمده فى أغسطس هردر الصارم ، الغفور رغم صرامته .

أما جوته ، الذى كثيراً ماكان عاشقاً ، ولكنه الآن فقط كان أباً ، فقد وجد الكثير من السعادة فى « الرجل الصغير » و «المرأة الصغيرة » . ودبرت له أمر بيته ، واستمعت إليه فى حب حتى وهى لاتفهمه ، ومنحته الصحة والعافية . قال لصديق منذ اجتازت هذه العتبة أول مرة لم ينلنى منها غير الفرح »[٧٦] . ولم ير فيها عيباً غير حبها للخمر حباً فاق حتى حبه ، وما أفضى إليه هذا أحياناً من المرح والقصف الذى لا يمكن السيطرة عليه . وكانت تختلف إلى المسرح ، وترتاد حفلات الرقص الكثيرة ، بينما يظل جوته فى البيت ويخلد ذكرها فى «المراثى الرومانية» Romische Elegien (١٧٨٩ — ٩٠) ، التى كتبها على طريقة بربروتيوس وبأخلاقيات كاتوللوس . وليس فى هذه « المراثى الرومانية » شىء حزين ، إنما تشتق اسمها هذا من بحر المراثى « elegiac » الذى تتناوب فيه البحور السداسية والخماسية التفاعل ؛ وهى لاتتصل بروما بل بأرملة طروب — نستشف من ورائها كرستيانه نفسها :

« كل ما تحويه أسوارك المقدسة أى روما الخالدة
يشغى بالحياة ، ولكنه فى ناظرى ساكن ميت .

أواه ، منذا يوشوش فى أذنى ؟ متى أشهد فى النافــذة
ذلك القد الجميل الذى يحيى وإن أحرق ؟
لا تندمى ياحبيبتى على أنك استسلمت هكذا سريعاً !
ثقى بى ، أراك غير جريئة ؛ إنما أشعر بالإجــلال . .
ان الاسكندر وقيصر وهنرى وفردريك ، هؤلاءالجبابرة ،
يودون أن يخلعوا على نصف المجد الذى ظفروا به
لو أننى وهبتهم ليلة واحدة على الأريكة التى أرقدعليها ؛
ولكنهم وا أسفاه يقعدهم ليل أوركوس فى قسوة .
فاغتبط إذن ، أيها الحى ، ناعماً فى بيتك المنور بالحب
قبل أن تبلل موجة «ليثى» الحزينة قدمك الهاربة »(٧٧)

وربما كانت تلك الأرملة الجميلة ذكرى من أيام روما ، ولكن دفء هذه الأبيات مبعثه كرستيانه . على أية حال ألم يكن يدرس الفن ؟

على أنه مما يعيننى على الدرس أيضاً أن أرسم
بيد حساسة تلافيف صدرها الجميــلة وأدع
الأنامل الحكيمة تنزلق هابطة على الفخذ النــاعم ،
لأننى هكذاأتمكن من صنعةالنحات القديم ، وأتأمل ،
وأقــارن ، وأتعــلم أن آتى وأبصـــر
بعين شاعرة ، وأشعر بيد مبصرة(٧٨) .

ولم يرق نبيلات فايمار هذا العرض المرخص لمفاتنهن ، وحزنت شارلوته الوقور على انحدار بطلها « جالاهاد » لا بل ان كارل أوجست ذاته انزعج قليلا ، ولكن سرعان ما هدأت نفسه . وعندما كانت الدوقة الأرملة عائدة من إيطاليا أرسل الدوق جوته إلى البندقية ليصحبها إلى أرض الوطن . وطال مقامه هناك (مارس إلى يونيو ١٧٩٠) طولا ضايقه ، وتاق إلى كرستيانة ، وصب جام غيظه من الباعة الإيطاليين ووسائل النظافة الإيطالية فى « الابجرامات الفينيسية » — وهى ، أقل أعماله اغراء بالقراءة .

فلما عاد من البندقية وجد أن الثورة الفرنسية تبعث النشوة فى شباب ألمانيا ، والخوف فى حكامها . وكان الكثيرون من أصحابه ، وفيهم فيلاند

وهردر ، يصفقون للإطاحة بالاستبدادية الملكية فى فرنسا . أما جوته ، الذى أدرك أن كل العروش مهددة بالخطر ، فقد اتخذ موقفه إلى جوار الدوق ، وأشار عليه بالحيطة وقال إن أناساً كثيرون جداً « يجرون وفى أيديهم منفاخ بينما يلوح لى أن الأجدر بهم أن يبحثوا عن أباريق الماء البارد للسيطرة على النار[٧٩] . وأطاع أمر كارل أوجست له بأن يصحبه فى حملة الحلف الأول ضد فرنسا . وحضر معركة فالمى (٢٠ سبتمبر ١٧٩٢) ، ووقف هادئاً تحت النيران ، وشارك فى الهزيمة . وقد سجل ضابط ألمانى فى يوميته أن الشاعر — عضو المجلس الخاص ، حين طلب إليه التعليق على الحدث أجاب « منذ اليوم ومن هذا الموضع يبدأ عصر جديد فى تاريخ العالم »[٨٠] . وليس لدينا ما يؤيد هذه القصة . ومهما يكن من أمر ، فإن جوته هاجم الثورة بقوة حين عاد إلى فايمار ، وكانت تدخل فترة شططها ووحشيتها (١٧٩٢ — ٩٤) .

ورسخت هذه التطورات فى جوته ذلك التحول الطبيعى ، تحول العقل الآخذ فى النضج ، من التلذذ بالحرية إلى حب للنظام . وشعر جوته انه إذا كان فى استطاعة أى أحمق أن يكون مبتكراً ، فإن فى استطاعة أى أحمق أن يحيا كما يشاء »[٨١] منتهكاً العادات أو القوانين فى اطمئنان لأن غيره يراعونها . ولم يشعر بتحمس للديمقراطية ، فلو أتيح لنظام كهذا أن يمارس فعلا لكان معناه تسلط الغفلة والجهل والخرافة والهمجية . لقد كان لطيفاً سمحاً فى نطاق دائرته ، ينفق بعض دخله على أعمال البر المستورة[٨٢] ، ولكنه كان ينكمش من الجماهير . فإذا وجد بين الجماهير أو الأغراب انطوى على نفسه فى كبرياء وأحجام ، وكان يجد سعادته الوحيدة فى بيته . فى سنى القلاقل هذه (١٧٩٠ — ٩٤) ران عليه سبات كئيب أيقظته منه لمسة شباب شيلر المتحمس ومنافسة قلمه .

٦ — شيلر فى الانتظار ١٧٨٧ — ١٧٩٤

كان جوته فى إيطاليا حين وصل شيلر إلى فايمار . واعترف الشاعر المعسر بغيرته من عضو المجلس الخاص الغائب . «بينما هو يرسم فى إيطاليا، يبذل النكرات

من الناس العرق من أجله كأنهم دواب الحمل . أنه يبعثر هناك راتباً قدره ١,٨٠٠ طالر ، وهنا عليهم أن يضاعفوا كدهم ليحصلوا على نصف هذا المال »(٨٣) . وفى ١٢ أغسطس ١٧٨٧ كتب بروح أكثر تعاطفاً .

« يتكلم الكثيرون هنا عن جوته فى شىء من الحب ، بل انهم أكثر حباً له وإعجاباً به إنساناً أكثر منه مؤلفاً . ويقول هردر إنه أوتى حكماً شديد الوضوح وعمقاً كبيراً فى الوجدان ، وعواطف نقية جداً . وجوته فى رأى هردر مبرأ من كل روح للدس والوقعية ، وهو لم يؤذ أحداً قط . . . وهو فى معاملاته السياسية يتصرف بصراحة وجرأة . . . ويقول هردر أن جوته أحق بالإعجاب كرجل دنيا منه شاعراً . . . وأن له عقلا يتسع لأى شىء »(٨٤) .

وكان الدوق غائباً حين حضر شيلر ، ولكن أنا أماليا وشارلوته فون شتين استقبلتاه استقبالا حاراً . وأخبره فيلاند أنه « ينقصه الصقل والوضوح والذوق »(٨٥) ، وتطوع بأن يصقله ، وسرعان ما أخذ الشاعر المتحمس يكتب المقالات لمجلة فيلاند « الرائد الألمانى » . وقد وجد ترفيهاً أحر مع شارلوت فون كالب ، التى كان لها كشارلوته الأخرى زوج واسع الأفق « ان الناس أخذوا يهمسون فى صوت عال بعض الشىء حول علاقتى بشارلوته . . . وقد كتب لى الهر فون كالب . وسيحضر فى آخر سبتمبر ، وسيؤثر وصوله كثيراً فى ترتيباتى . وصداقته لى لم يطرأ عليها تغيير ، وهو أمر مدهش ، لأنه يحب زوجته ، ويعلم بصلتى الحميمة بها . . . ولكنه لا يمكن أن يشك لحظة واحدة فى وفائها . . . ومازال كما كان ، الرجل الأمين الطيب القلب»(٨٦) .

وفى ٢٧ أغسطس ١٧٨٧ عرضت « دون كارلوس » أول مرة فى همبورج . وكان بشيلر من الولع بفايمار ما منعة من الذهاب لحضور العرض . وقد استقبلت تمثيليته هـــذه وهى أولى تمثيلياته الشعرية ، بالمديح والذم كليهما لأنها استسلام لأسلوب المأساة الفرنسية ، ولكن يعوزها الوحدة المسرحية التى تتطلبها قواعد أرسطو . وقد استهلت بالصراع بين فليب الثانى وابنه على حب اليزابيث أميرة فالوا ، ثم انتقل مركز الاهتمام فى منتصف التمثيلية

إلى كفاح الأراضى الواطئة للتحرر من السيادة الإسبانية ومن قسوة ألفا . وحاول شيلر أن يرسم صورة محايدة لفليب ، وقد صفق القراء البروتستنت لهذا النداء الذى وجهه المركيز بوزا إلى الملك :

يا صاحب الجلالة ،
لقد مررت مؤخراً بأرض فلاندر وبرابانت —
أقاليم كثيرة غنية موفقة ،
تزخر بشعب باسل عظيم أمين !
قلت فى نفسى انه لشىء رائع حقاً
أن يكون الإنسان أباً لشعب كهذا !
ثم تعثرت قدمى فوق كومة من عظام رجال محترقة !
فليتك ترد لنا كل ما حرمتنا منه ،
وتدع السعادة تتدفق من نبع خيرك
لأنك قوى كريم النفس ؛ دع عقل الإنسان
ينضج فى ملكك الشاسع . . . ويصبح
ملكاً حقاً بين مئات الملوك ! . . .
دع كل فرد من رعيتك يصبح ماكانه يوماً ما —
الغاية والهدف لرعاية المليك واهتمامه ،
لا يربطه واجب غير محبة الأخ لأخيه »(٨٧)

وهجر شيلر الدراما طويلا رغم نجاح دون كارلوس . وكان قد كتب إلى كورنر فى ١٧٨٦ يقول « ان التاريخ يدخر لى مع كل يوم تال مغريات جديدة . . . وددت لو لم أدرس شيئاً غيره طوال عشر سنوات متصلة ؛ أظننى كنت أصبح مخلوقاً من نوع آخر . أترى أنه مازال أمامى متسع من الوقت للتعويض عما فقدت؟ »(٨٨) ولم يكن فى استطاعته أن يعول نفسه ، فضلا عن أن يعول أسرة ، من حصيلة مسرحيات عارضة قد تذبل وتموت

موتاً مبكراً حتى بعد أن تحظى بعرض أول يصفق له النظارة . فلعل كتاباً ناجحاً فى التاريخ يكسبه من الشهرة العلمية ما يكفى للظفر بأستاذية فى جامعة يينا . هناك لن يبعد عن فايمار بأكثر من أربعة عشر ميلا ، وسيبقى فى نطاق سلطة الدوق وكرمه .

وعليه ، فبعد أن فرغ من « دون كارلوس » عكف على تأليف« تاريخ سقوط الأقاليم الواطئة المتحدة » . وإذ كان لا يقرأ الهولندية ، فقد اعتمد على مراجع ثانوية جمع من رواياتها تصنيفاً غير ذى قيمة باقية . وانتقد كورنر المجلد الأول (١٧٨٨) بأمانته المعهودة : « ان العمل الراهن ، مع كل مزاياه ، لا يحمل طابع تلك العبقرية التى أنت ميسر لها »[٨٩] . وتخلى شيلر عن الكتاب ، ولم يصدر مجلد ثان فى موضوعه .

وفى ١٨ يوليو ١٧٨٨ عاد جوته من إيطاليا ، وفى سبتمبر التقى بشيلر فى ضاحية رود ولشتات . وكتب شيلر إلى كورنر يقول : « ان الفكرة العظيمة التى كونتها عنه لم تنقص مثقال ذرة . . . ولكنى أشك فى أننا سنتقارب تقارباً وثيقاً يوماً ما . . . انه يسبقنى بمراحل . . . فلا يمكن أن نلتقى على الطريق . وقد سارت حياته كلها من بدايتها فى اتجاه معاكس لاتجاه حياتى . وعالمه ليس عالمى . وأفكارنا فى بعض النقاط متعارضة تعارضاً تاماً »[٩٠] . والحق أن الشاعرين كانا يبدوان وكأن العناية قصدت بهما أن يكره الواحد صاحبه . فجوته ، ذو التسعة والثلاثين ، قد وصل ونضج ، أما شيلر ، ذو التسعة والعشرين ، فكان يتسلق ويجرب ؛ ولم يتفقا إلا فى الأنانية المتعالية . كان أصغرهما من غمار الشعب ، رقيق الحال ، يكتب الشعر القريب من الثورية ؛ أما الآخر فكان غنياً ، رجلا ذا مكانة ومنصب مرموق ، عضواً فى المجلس الخاص يستنكر الثورة . وكان شيلر قد خرج لتوه من حركة « الزوبعية » ؛ كان صوت الوجدان والعاطفة والحرية والرومانس ؛ إما جوته الذى تولع باليونان ، فكان بكل ميوله مع العقل ، والقصد ، والنظام ، والأسلوب الكلاسيكى . على أية حال ليس من الطبيعى فى عالم المؤلفين أن يحب بعضهم بعضاً ، فهم إنما يسعون للظفر بذات الجائزه .

فلما أن عاد جوته وشيلر إلى فايمار لم يكن يفصل مسكنيهما غير مسيرة قصيرة ، ولكنهما لم يتصلا الواحد بالآخر . وساءت العلاقة بينهما بظهور نقد شيلر المناوىء لتمثيلية جوته « إجمونت» وقرر جوته أن أثينا الصغيرة » لا تتسع لكليهما . فى ديسمبر ١٧٨٨ زكى شيلر لكرسى فى التاريخ بجامعة يينا . وقبل شيلر المنصب مسروراً وزار جوته ليشكره ، ولكنه كتب إلى كورنر فى ٢٩ فبراير ١٧٨٩ :

لو طالت عشرتى لجوته لشقيت بها . فهو لا يهش حتى لأصدق أصدقائه ، ولا شىء يربطه . وأنا أومن حقاً أنه أنانى من الدرجة الأولى . وقد أوتى موهبة تطويق أعناق الناس بمجاملات صغيرة وكبيرة ، ولكنه يفلح دائماً فى أن يظل هو نفسه حراً . . . وأنا أنظر إليه على أنه تجسيد لنظام مدروس جيداً من الأنانية التى لا حد لها . وينبغى ألا يطيق الناس مخلوقاً كهذا بقربهم . وأنا أبغضه لهذا السبب ، وإن لم أملك إلا الإعجاب بعقله ، والتفكير فيه بسمو . لقد بعث فى مزيجاً عجيباً من البغض والحب»(٩١) .

وفى ١١ مايو ١٧٨٩ تسلم شيلر عمله فى يينا ، وفى ٢٦ مايو ألقى « خطاب الافتتاح» وموضوعه « ما التاريخ العالمى وما الهدف من دراسته » ؟ وإذ كان الدخول مجاناً ، فقد تبين أن الحضور يفوق كثيراً ما تتسع له الحجرة المخصصة ، وانتقل الأستاذ مع جمهوره فى هرج ومرج إلى قاعة فى الطرف الآخر من المدينة . وقد لقيت هذه المحاضرة ثناء مستطابا ، « فقد غنى لى الطلبة سرينادا فى تلك الليلة وهتفوا لى ثلاثا (٩٢) . غير أن عدد من سجلوا أسماءهم لحضور المحاضرات كان صغيراً — وكان الحضور نظير رسم يدفعه الطالب ، ومن ثم كان دخل شيلر من التدريس ضئيلا .

فأضاف إليه بالكتابة . وفى ١٧٨٩ — ٩١ أصدر على ثلاث دفعات « تاريخ حرب الثلاثين » . هنا وجد اليسر على الأقل من حيث اللغة ، وإن منعته مضايقات شديدة مرة أخرى من الرجوع إلى المصادر الأصلية ، وشوه حبه لإصدار الأحكام والتفاسف القصة وقطعها . ومع ذلك فقد رحب فيلاند بالكتاب دليلا على « قدرة شيلر على أن يرتفع إلى مستوى هيوم وروبرتسن

openkandl.com

وجبون »[٩٢] . وبيعت سبعة آلاف نسخة من المجلد الأول فى السنة الأولى لصدوره .

وشعر شيلر الآن أن فى استطاعته إشباع شوقه إلى بيت خاص به ، وإلى امرأة تمنحه حبها ورعايتها . وكان قد أتيح له لمحة خاطفة لشارلوته وكارولينه فون لنجفيلد فى مانهايم عام ١٧٨٤ . ثم رآهما ثانية فى رودولشتات فى ١٧٨٧ ، وكانت « لوته » تعيش هناك مع أمها ، أما كارولينه ، الشقية فى زواجها ، فكانت تسكن فى البيت المجاور . وكتب شيلر إلى كورنر يقول : [٩٤] « انهما لذيذتان رغم أنهما غير جميلتين ، وهما تسرانى غاية السرور . وهما مطلعتان على أدب العصر ، وتتوفر الأدلة على تمتعهما بتعليم راق جداً . وهما عازفتان ماهرتان على البيانو » . وأنكرت السيدة لنجفيلد فكرة زواج ابنتها من شاعر مملق ، ولكن كارل أوجست نفحه بمعاش صغير قدره مائتا طالر ، وأنعم علية دوق ساكسى — ميننجن بشعار النبالة . وقد نبه لوته إلى أن فيه عيوباً كثيرة ، فقالت أنها لحظتها ، ولكنها أضافت « ان الحب حب الناس كما نجدهم ، وقبول مواطن ضعفهم إن وجدت بقلب محب » .[٩٥] وزفا فى ٢٢ فبراير ١٧٩٠ ، واتخذا منزلا متواضعاً فى يينا . وأتته لوته بدخلها البالغ مائتى طالر فى العام ، وأنجبت له أربعة أطفال ، وأثبتت خلال شدائده كلها أنها الزوجة الصابرة الحنون . كتب يقول « ان قلبي يسبح فى السعادة ، وعقلى يستمد قوة وعافية جديدتين »[٩٦] .

وعكف على عمله بهمة ، يعد محاضرتين كل أسبوع ، ويكتب المقالات ، والقصائد ، والتاريخ . وظل شهوراً يكد ويكدح أربع عشرة ساعة فى اليوم[٩٧] . وفى يناير ١٧٩١ أصيب بنوبتين من « الحمى النزلية » جلبتا معهما آلاماً فى المعدة وبصقاً للدم . وظل طريح الفراش ثمانية أيام ومعدته ترفض كل طعام . وأعان الطلبة لوته على العناية به و « تنافسوا أيهم يسهر معى . . . . وبعث إلى الدوق بست زجاجات من نبيذ ماديرا المعتق الذى أفادنى مع بعض النبيذ المجرى »[٩٨] . وفى شهر مايو أصابه « تشنج رهيب ، مصحوب بأعراض الاختناق ، فتراءى لى أن ساعتى قد دنت . . . وودعت

obeikandl.com

احباتى ، وظننتنى راحلا عن الدنيا فى أى لحظة . . . وخففت عنى كثيراً بجرعات قوية من الأفيون والكافور والمسك واستعمال عوامل التبثر »(٩٩) .

وأزعج أصحابه شائعة كاذبة بموته ، وصلت حتى كوبنهاجن . وهناك — بناء على اقتراحين من كارل راينهولت وينز باجيزن — وهما نبيلان دانمركيان — عرض الدوق فردريش كوستيان أمير هولشنين— أوجستنبورج والاونت إرنست فون شيملمان على شيلر منحة سنوية قدرها ألف طالر على مدى ثلاث سنين . فقبلها شاكراً . وأعفته الجامعة من التدريس ولكنه ظل يحاضر فرقة خاصة صغيرة . ثم خصص بعض فراغه الجديد ، بناء على اقتراح من راينهولت ، لدراسة فلسفة كانط التى قبلها كاملة تقريباً ، وهو ما أضحك جوته وأثار اشمئزاز هردر ، وربما ألحق بعض الأذى بشعر شيلر .

ونشر الآن (١٧٩٣) مقاله الطويل « فى الكياسة والكرامة » الذى استهل التربية الرومانسية « للروح الجميلة » . وقد عرف هذه الروح الجميلة بأنها تلك التى « ينسجم فيها العقل والحواس ، والواجب والميل ، وتجد هذه كلها التعبير الخارجى فى الكياسة »(١٠٠) . ولا بد أن المتبرعين الكوبنهاجيين قد هالهم أن يتلقوا ، كبعض الرد على منحتهم ، كتيباً عنوانه « رسائل فى التربية الجمالية (الاستطيقية) للإنسان » (١٧٩٣ — ٩٤) . وقد بدأ شيلر بفكرة كانط عن الإحساس بالجمال كتأمل نزيه للصور المتناسقة ، ثم زعم (مع شافتسبرى) أن « الشعور الذى ينميه الجميل يهذب السلوك » ويصبح الحس الجمالى هو والفضيلة واحداً . وأنه لعزاء أن نقرأ ، فى هذا الرأى المنبعث من أيام فايمار المزدهرة ان شيلر (كجوته) رأى أن جيله منحل ، غارق فى انحطاط خلقى سحيق »(١٠١) .

فلما عاد من الفلسفة إلى الشعر وجد عناء فى استحضار « تلك الجرأة والنار المضطرمة التى كنت أملكها من قبل ، .. لقد أفسدنى الجدل النقدى »(١٠٢) . ولكنه أصر على أن « الشاعر هو الإنسان الأصيل الوحيد ، وليس أفضل الفلاسفة إلا كاريكاتورا إذا قيس به »(١٠٣) ، ورفع

وظيفة الشاعر فى تعليم البشر والتسامى بهم إلى مستوى الإلهام السماوى . وقد وصف فى قصيدة غنائية طويلة « الفنانون ١٧٨٩ » الشعراء والفنانين بأنهم يرشدون النوع الإنسانى إلى وحدة الجمال مع الفضيلة والحق . وفى قصيدة أخرى «آلهة اليونان» (١٧٨٨) امتدح اليونان على حساسيتهم الجمالية وإبداعاتهم الفنية ، وزعم ، فى إبهام حذر ، إن العالم بات كئيباً قبيحاً منذ حلت المسيحية محل الهيلينية . وكان واقعاً الآن تحت سحر جوته كما وقع جوته من قبل تحت سحر فنكلمان .

ولعل تصوير شيلر وجوته الرومانسى لليونان القديمة كان هروباً من المسيحية . فشيلر ينتمى إلى التنوير رغم بعض الفقرات الورعة ، شأنه فى ذلك شأن جوته ؛ وقد قبل إيمان القرن الثامن عشر بالخلاص عن طريق العقل البشرى لا النعمة الإلهية . واحتفظ باعتقاد ربوبى فى الله — شخصى فى الشعر فقط — وخلود غامض . ورفض الكنائس كلها البروتستنتية منها والكاثوليكية . ولم يكن يطيق المواعظ حتى مواعظ هردر . وقد كتب بيتين شهيرين فى ابجرام عنوانه (عقيدتى) يقول فيهما :

أى دين أعترف به ؟ ولاواحد من كل

الأديان التى تذكرها لى . ولم ؟ بسبب الدين (١٠٤) .

وكتب إلى جوته فى ٩ يوليو ١٧٩٦ يقول « ان الطبيعة السليمة الجميلة — كما تقول أنت نفسك — ليست فى حاجة إلى ناموس أخلاقى ، إلا إلى قانون لطبيعتها ، ولا إلى ميتافيزيقا سياسية . وكان فى وسعك أن تضيف أيضاً أنها ليست فى حاجة إلى إله ، ولا فكرة خلود تدعم وتصون بها ذاتها» . ومع ذلك كان فيه عوامل من الخيال والرقة ردته صوب المسيحية :

« اننى أجد أن المسيحية تحتوى فعلا على الأصول الأولى لكل ما هو أسمى وأنبل ؛ وصورها الخارجية المختلفة لا تبدو لنا بغيضة منفرة إلا لأنها تعبيرات سيئة عن الأسمى . . ولم يشدد أحد تشديداً كافياً على ما يمكن أن يكونه هذا الدين لعقل جميل أو على الأصح ما يمكن أن يفهمه منه

عقل جميل . وهذا يفسر نجاح هذا الدين نجاحاً كبيراً مع الطبائع الأنثوية ، وأنه فى النساء فقط يمكن احتماله إطلاقاً »[١٠٥] .

لم يكن شيلر كجوته مركباً من حيث بدنه للوثنية الخالصة . كان وجهه مليحاً ولكنه شاحب ، وقوامه فارعاً ولكنه نحيل هش . وكان يخشى تقلبات الجو اليومية ويؤثر القعود فى حجرته يدخن ويتنشق . وكان يقابل بينه وبين جوته مقابلة الفكرة ضد الطبيعة ، والخيال ضد العقل ، والعاطفة ضد الفكر الموضوعى[١٠٦] . وكان يجمع بين الحياء والكبرياء ، يخشى الخصومة ولكنه يرد دائماً على الهجوم ؛ سريع الغضب فاقد الصبر أحياناً ،[١٠٧] ربما لأنه كان عليماً بأن عمره ينفد ؛ يكثر النقد للغير ويحسدهم أحياناً[١٠٨] . وكان يميل إلى استخراج العبرة عن كل شىء ، وإلى الضرب على وتر مثالى عال . ومما يريح نفوسنا أن نراه يستمتع بغراميات قصة ديدرو «الحلى الواشية »[١٠٩] . وقد أجاد تحليل موهبته فى خطاب مبكر إلى جوته :

« لقد غلبنى عقل الشاعر عموماً حين كان ينبغى أن أفلسف . وغلبنى عقل الفيلسوف حين كنت أريد الشعر . وحتى الآن كثيراً ما يحدث أن يقتحم الخيال تجريداتى ، والفكر الهادىء نتاجى الشعرى . ولو استطعت السيطرة على هاتين القوتين بحيث أعين لكل منهما حدودها (كما كان جوته يفعل) لبقى لدى أمل فى التطلع إلى مصير سعيد . ولكن حين بدأت أعرف طاقاتى المعنوية واستخدمها على الوجه الصحيح ، هاجمنى المرض للأسف وهددنى بتقويض قواى البدنية »[١١٠] .

وعاوده المرض بعنف فى ديسمبر ١٧٩٣ ؛ ثم تماثل للشفاء ، ولكن إحساسه بأنه لاشفاء له منه وأنه يجب أن يتوقع نوبات راجعة أورثه الكآبة . فى ١٠ ديسمبر كتب إلى كورنر يقول « إننى أكافح هذا الشعور بكل قوى عقلى . . . ولكنى أصد دائماً . . . فإن غموض مستقبلى ؛ . . . والشكوك فى عبقريتى التى لايدعمها ولا يشجعها الاتصال بغيرى ، والافتقار التام لذلك الحديث العقلى الذى أصبح ضرورة لا غنى لى عنها » ؛ تلك كانت الأفكار الملازمة لمحنته الجسدية . وراح يتطلع فى تشوق ، من يينا لفيمار ،

إلى جوته الذى ينعم بعافية يحسد عليها ، ذلك « العقل السليم فى الجسم السليم » وأحس شيلر انه هناك يوجد الرجل الذى يستطيع أن يعطيه الحافز والدعم ، لو أن الجليد القائم بينهما ذاب ، وسقط حاجز الأميال الأربعة عشر الذى يفصل بينهما !

٧ — شيلر وجوته ١٧٩٤ — ١٨٠٥

وسقط الحاجز لحظة حين حضر الرجلان فى يونيو ١٧٩٤ جلسة عقدتها جمعية التاريخ الطبيعى فى يينا . فلما التقى شيلر بجوته وهما يغادران القاعة ، قال معلقاً أن العينات البيولوجية المعروضة فى المؤتمر تعوزها الحياة ، ولا ولا يمكنها أن تعين مشاهدها حقاً على فهم الطبيعة . ووافق جوته مشدداً ، وتجاذبا الحديث حتى بلغا بيت شيلر . وقال جوته فيما بعد مستعيداً ذكرى اللقاء « وأغرانى الحديث بالدخول معه وشرحت له . . . « تحور النباتات» — وهى مقالة زعم فيها جوته أن جميع النباتات تنويعات من نمط أولى واحد . وأن كل أجزاء النبات تقريباً تنويعات أو تطويران للورقة . « واستمع . . . إلى هذا كله بكثير من الاهتمام وبفهم واضح ، ولكن ما إن فرغت حتى هز رأسه وقال لى « ليست هذه تجربة ، إنما هى فكرة » ، أى أنها نظرية لم تثبتها الملاحظة أو الاختبار . وغاظ التعليق جوته ، ولكنه رأى أن لشيلر عقلا مستقلا ، فازداد احترامه له . أما زوجة شيلر « التى أحبتها وقدرتها منذ طفولتها ، فقد بذلت قصاراها لتوثق تفاهمنا المتبادل »[١١١] .

وفى مايو ١٧٩٤ كان شيلر قد وقع عقداً بالإشراف على تحرير مجلة أدبية شهرية «تسمى د اى هورين والهوراى » فى المتيولوجيا الإغريقية ربات الفصول . وكان يأمل أن يجند للمجلة كانط ، وفشته ، وكلوبشتوك ، وهردر ، وياكوبى ، وياجيزين ، وكورنر ، ورايهولت ، وفلهلم فون همبولت ، وأوجست فلهلم فون شليجل ، ثم جوته — أفضل صيد يطمع فى اقتناصه . وفى ٣ يونيو أرسل إلى فايمار رسالة موجهة إلى « السيد الكريم المحتد ، الرفيع المقام ، المكرم ، عضو المجلس الخاص » ، تحتوى على نشرة تمهيدية للمجلة المقترحة ، وأضاف : « أن الورقة المرافقة تعرب عن

رغبة عدد من الرجال الذين يقدرونك تقديراً بغير حدود فى أن تشرف الدورية بمقالات من قلمك ، يجمع الكل بصوت واحد على عظم قيمتها . ونحن نشعر ياصاحب السعادة بأن موافقتك على دغم هذا المشروع ستكون ضماناً لنجاحه »(١١٢) . ورد جوته بأنه يسره المشاركة بمقالاته ، وأنه « على ثقة من أن الاتصال الأوثق بالرجال الأصلاء الذين يؤلفون لجنتكم سيبعث حياة جديدة فى كثير مما هو راكد الآن فى باطنى(١١٣) .

وهكذا بدأ تراسل يعد من ذخائر تاريخ الأدب ، وصداقة اتصلت إحدى عشرة سنة — حتى موت شيلر — فيها من تبادل الاحترام والعون ما ينبغى أن يدخل فى تقديرنا للنوع الإنسانى . وربما كان أكثر هذه الرسائل الباقية كشفاً — وعددها ٩٩٩ — هى الرسالة الرابعة (٢٣ أغسطس ١٧٩٤) ، التى حلل فيها شيلر — بعد عدة لقاءات مع جوته جمعت بين المجاملة والصراحة وبين التواضع والاعتزاز بالنفس ، الفارق بين عقليهما . قال :

« إن أحاديثى الأخيرة معك حركت كل ذخيرة أملكها من الأفكار . . . فكثير من الأشياء التى لم أستطع أن أصل فيها إلى تفاهم خاص مع نفسى تلقت ضوءاً جديداً غير متوقع من تأملى لعقلك (فهكذا أسمى التأثير العام لأفكارك على) . . لقد أعوزنى التجسيد لعدد من أفكارى التأملية ، وأنت وضعتنى على الطريق المفضى إليه . وأسلوبك الهادىء الواضح فى النظر إلى الأشياء يعصمك من التيه فى الطرق الجانبية التى كثيراً ما يشرد بى فيها تأملى وخيالى المستبد . ان حدسك الصائب يدرك كل الأشياء ، ويدركها على نحو أكمل كثيراً مما ينشده المرء فى عناء بالتحليل . . . وعقول كعقلك قل أن تعرف إلى أى حد بعيد نفذت وتغلغلت ، وأنه ما من داع يذكر يدعوها للاستعارة من الفلسفة ، التى لا تستطيع فى الواقع إلا أن تتعلم منها . . . ومع أننى فعلت هذا على بعد ، إلا اننى طالما راقبت المسار الذى سلك فيه عقلك . . أنت تبحث عن الضرورى فى الطبيعة ، ولكنك . . . تنظر إلى الطبيعة بوصفها كلا حين تحاول جعل الضوء يلقى على أجزائها الفردية ، أنت تبحث عن تفسير الفرد فى جماع مظاهرها المتنوعة(١١٤) .

أما رد جوته (٢٧ أغسطس) فقد تجنب فى ذكاء تحليل عقل شيلر :

« ماكنت لأتلقى بمناسبة عيد ميلادى الذى وقع هذا الأسبوع هدية أجمل من رسالتك التى تلخص فيها حياتى بيد ودود ، وتشجعنى فيها بتعاطفك على استخدام قدراتى استخداماً أكثر مثابرة ونشاطاً . وسيكون من دواعى سرورى أن أكشف لك حين تتاح لى الفرصة ماكانه حديثك لى ، وكيف أننى أنا أيضاً أعد تلك الأيام مرحلة متميزة فى حياتى ، لأنه يبدو لى اننا لانملك بعد هذا اللقاء غير المتوقع إلا أن نطوف فى دروب الحياة معاً » .

وتابع جوته هذه الرسالة (٤ سبتمبر) بدعوة لشيلر ليحضر إلى فايمار وينفق معه أياماً فيها . « سيكون فى استطاعتك أن تشرع فى أى عمل تشاء دون أن يزعجك أحد . وسنتجاذب الحديث معاً فى أوقات ملائمة . وفى ظنى اننا لن نفترق دون أن نحقق بعض الكسب . وعليك أن تعيش هنا تماماً كما تحب ، وكما لوكنت فى بيتك ما أمكن ذلك » . ولم يتردد شيلر فى القبول ، ولكنه حذر جوته قائلا « ان تشنجات الربو التى أعانى منها تلزمنى الفراش طوال الصباح لأنها لاتسمح لى بأى راحة فى الليل » . وهكذا كان شيلر ضيف جوته وعليله تقريباً من ١٤ إلى ٢٨ سبتمبر . وأعتى أكبر الرجلين بالشاعر العليل عناية رفيقه ، وحماه من المضايقة ، وبذل له النصح فى أمر غذائه ، وعلمه حب الهواء الطلق . كتب شيلر (٢٩ سبتمبر) بعد عودته إلى يينا يقول « أجدنى فى بيتى مرة أخرى ، ولكن أفكارى لاتزال فى فايمار . ولا بد لى من وقت طويل أحل فيه خيوط كل الأفكار التى أيقظتها فى » . ثم (٨ أكتوبر) ، ناشده ه بما عهد فيه من تحمس « يبدو لى انه من الضرورى أن نصل فوراً إلى قدر من التفاهم الواضح حول أفكارنا عن الجميل » .

ثم تلا ذلك شهور ثلاثة من التحضير للعدد الأول من مجلة « هورين » الذى صدر فى ٢٤ يناير ١٧٩٢ ، والثانى فى أول مارس ، والأعداد الباقية شهرياً على مدى ثلاث سنين ، وكتب جوته من فايمار (١٨ مارس) يقول « إن الناس يتهافتون عليها ، ويتخاطفون أعدادها ، وما كنا لنطمع فى أكثر

من ذلك لهذه البداية » . وفى ١٠ أبريل كتب شيلر لجوته يقول « لقد كتب لى كانط خطاباً ودياً جداً ، ولكنه طلب مهلة لإرسال مقالاته . . . ويسرنى أننا أغرينا الطائر العجوز بالانضمام إلينا . » وطلب جوته أن تنشر مقالاته غفلا من التوقيع ، لأنها اشتملت على عدد من « مراثيه الرومانية » ، وكان عليماً بأن نزعتها الشيقة القوية ستبدو غير لائقة بعضو فى المجلس الخاص .

وفى حماسة النجاح المتهورة أقنع شيلر جوته بأن يشترك معه فى إصدار دورية أخرى « التقويم السنوى للشعر » صدرت كل سنة من ١٧٩٦ إلى ١٨٠٠ . وأطرف ما احتوته هو الأبجرامات المسماة xenien والتى صاغها الشاعران على غرار ابجرامات مارتيال Xenia (اكسنيا) التى كانت تكتب هدايا للضيوف . وقد وصف شيلر المشروع لكرونر فقال : « ان العملية كلها تجميع لأبجرامات ، كل منها مقطع شعرى من بيتين . وهى فى أكثرها هجائيات عنيفة شيطانية ، موجهة بصفة خاصة ضد المؤلفين وأعمالهم ، يتخللها هنا وهناك ومضات خاطفة من الأفكار الشعرية أو الفلسفية . فسيكون هناك عدد لا يقل عن سمائة من هذه المقطوعات »[١١٥] . وكان جوته قد اقترح هذه الفكرة ذريعة لرد اللطمات إلى نقادهما ، وللسخرية من المؤلفين المغرورين وأصحاب الميول البورجوازية ، ولتنبيه جمهرة القراء الألمان إلى الاهتمام بالأدب اهتماماً أشد . وعزماً على أن يطلقا هذه « الهدايا » على معسكر الرجعيين « كالثعالب المشتعلة الذيول » .[١١٦] وكانت الأبجرامات بلا توقيع ، وكان بعضها نتاجاً مشتركاً للمتآمرين كليهما . وإذ كان الكثير من هذه الذيول المشتعلة موجهاً ضد مؤلفين طواهم النسيان أو جدليات لا يذكرها الناس الآن ، فإن الزمن أطفأ نارها ، ولكن واحداً منها بقلم جوته يستحق منا التنويه الخاص :

« جاهد دائماً فى سبيل الكل ، وإذا لم تستطع أنت نفسك أن تصبح كلا ، فاربط نفسك إلى كل ما يوصفك جزءاً تابعاً » .

وهناك إبجرام آخر يعزى عادة إلى شيلر يفصل الفكرة :

« أتخاف الموت؟ أتريد الحياة دون أن تموت؟ إذن عش فى الكل !

فسوف يبقى بعد أن تموت بزمن طويل . » وقد جر عليهما الجزء الهجائى من الابجرامات هجمات مضادة آلمت شيلر واضحكت جوته . ونصح جوته شيلر بأن يجعل من عمله الرد الوحيد على هذا الهجوم . « بعد مغامرتنا المجنونة فى الابجرامات ، علينا أن نحرص على العكوف على أعمال الفن العظيمة الجليلة دون غيرها ، وأن نخزى جميع خصومنا بتحويل طبائعنا المتقلبة إلى صور نبيلة »(١١٧) .

وهكذا كان ، ففى سنى صداقتهما النامية تلك كتب جوته وشيلر بعضاً من اروع قصائدهما : فكتب جوته « عروس كورنت » و « الأله والبايدير » ؛ وكتب شيلر « المسيرة » (١٧٩٥) و « كراكى أبيكوس » (١٧٩٧) و « أنشودة الناقوس » (١٨٠٠) . وأضاف شيلر مقالا كبيراً فى « الشعر الساذج العاطفى » (١٧٩٥) — وطلع جوته على الناس بقصته « تلمذة فلهلم ما يستر » (١٧٩٦) .

وقد عنى شيلر بالشعر الساذج العاطفى ، ذلك الشعر المنبعث عن الإدراك الحسى الموضوعى مقابل الشعر الذى ينشئه الوجدان التأملى ؛ وكان فى طويته يقارن بين جوته وشيلر . أما الشاعر «الساذج» فليس بسيطاً ولاسطحياً ولا مخدوعاً ، إنما هو شاعر توافق فى يسر مع العالم الخارجى بحيث لايشعر بأى تعارض بينه وبين الطبيعة ، بل يجد طريقه إلى الواقع بالحدس المباشر غير المتردد : ويستشهد شيلر بهومر وشكسبير مثالين على فكرته . وكلما أصبحت المدنية أكثر تعقيداً وافتعالا فقد الشعر هذه المباشرة الموضوعية والانسجام الذاتى ؛ ودخل الصراع النفس ، وكان على الشاعر أن يقتنص من جديد بالخيال والوجدان هذا التوافق والاتحاد بين النفس والعالم — كمثل أعلى يتذكره أو يتطلع إلى تحقيقه ؛ ويغدو الشعر عندئذ تأملياً ، يلبد الفكر سماءه(١١٨) . وكان شيلر يعتقد أن معظم الشعر اليونانى من النوع الساذج أو المباشر . ومعظم الشعر الحديث حصيلة التنافر والتفكك والشك . والشاعر المثالى هو الذى يصهر المدخلين جميعاً — البسيط والتأملى — فى رؤية واحدة وصورة شعرية واحدة . وقد ذكر جوته فيما بعد أن هذا المقال أصبح مصدراً للجدل بين الأدب والفن الكلاسيكيين والرومانتيكيين .

ونمو فكرة « تلمذة فلهلم ما يستر » من بدايتها إلى تمام تنفيذها يوضح منهج جوته فى الخلق . فقد تصور القصة فى ١٧٧٧ ، وأتم الكتاب الأول فى ١٧٧٨ ، ثم نحاه جانباً ، ولم يكمل الكتاب الثانى حتى يوليو ١٧٨٢ . ثم عكف على الكتاب الثالث حتى نوفمبر من ذلك العام ، وعلى الرابع حتى نوفمبر ١٧٨٣ ؛ أما الكتابان الخامس والسادس فقد امتد بهما الزمن ثلاث سنين خرى . وقد أطلق على الكتب الستة « انطلاق فلهلم ما يستر المثير » وقرأ أجزاء منها على بعض أصحابه ، ثم طرحها جانباً . وعاد إلى القصة فى ١٧٩١ بإلحاح من هردر وآنا آماليا ، وأضاف إليها كتابين فى ١٧٩٤ ، ثم عرض المخطوط المتعاظم على شيلر ، الذى رد بانتقادات واقتراحات وتشجيع كلما وافاه المؤلف بصفحات جديدة ، وكأنها صورة لقابلة تعين الأم على ولادة فات أوانها ، وأخيراً ، فى ١٧٩٦ ، دفع جوته بالمؤلف كله إلى المطبعة . لا عجب إذن أن كانت الحصيلة النهائية مشوهة تشوهاً طفيفاً ، ضعيفة البناء ، « دهنية » القوام ، مهوشه ، ممتازة فى أجزاء فقط ، وفى عكسها لتردد جوته بين الاهتمامات المتضاربة ، والمثل العليا الغامضة . لقد كان الحسم والثقة بالنفس ، اللذان نعته بهما شيلر ، هما الستار المتكبر للتذبذب والصراع الداخليين .

وقد عبر الكتاب عن فترة التلمذة فى النقابات الحرفية الألمانية ، وخلال زمن الوصاية هذا أصبح فلهلم « معلماً » فموضوع القصة المطوف إذن هو هو تلمذة فلهلم البطيئة الأليمة فى نقابة الحياة . وبسبب مسارح العرائس التى أحبها جوته طفلا ، واهتمامه المتصل بالمسرح ، ربط القصة بفرقة من الممثلين تجتاز مدناً كثيرة وتتقلب عليها عشرات الغير دروساً فى الحياة وصوراً لأساليب العيش الألمانية . وإذ كان وفياً لعدم وفائه فقد أدخل بطله إلى مسرح الأحداث بهجراته خليلته ماريانه . وفلهلم ليس بالشخصية الفتانه . فهو يترك نفسه تساق من موقف لآخر أو من فكرة لأخرى على هوى الظروف أو بقوة الشخصية المفروضة عليه ، والمرأة هى التى تقوم بالمبادرة فى غرامياته . ولد بورجوازياً ، ومن ثم فهو يتعثر إعجاباً بالرجال النبلا

obeikandi.com

المولد ، ويأمل فى تواضع أنهم فى يوم ما سيعترفون بارستقراطية العقل . أما فيلينه فأكثر جاذبية منه : فهى ممثلة جميلة تثب بخفة من عشق إلى عشق ، ولكنها تجمل تطويفها الغرامى بمرح معد وعدم وعى بالإثم يحلها من خطيئتها . أما مينون الصغيرة ففريدة فى بابها ، تتبع أباها الشيخ فى إحساس بالواجب وهو يعزف عزفاً غير بارع على قيثارته فى جولات يجمع فيها الدراهم . ويقول جوته فى وصفها أنها تتكلم « المانية ركيكة جداً »(١١٩) . ولكنه يجرى على لسانها تلك الأغنية الرائعة « أتعرف ذلك البلد » . وهى تقع فى غرام المراهقة بفلهلم الذى يحبها حبه لطفلة ، وتموت هى حزناً حين تراه بين ذراعى تريزا . وقد التقطها امبرواز توما من بين هذه الصفحات الثمانمائة ليجعل منها أوبرا حزينة ممتعة (١٨٦٦) .

وامتدح شيلر رصانة أسلوب القصة وصفاءه ، وما فى وصف الفرقة التمثيلية الجوالة من صدق ومطابقة للحياة ، ولكنه أشار إلى تناقضات فى الترتيب الزمنى ، وشبه استحالات سيكولوجية ، وانتهاكات للذوق ، وأخطاء فى التصوير والتصميم »(١٢٠) . واقترح تغييرات فى الحبكة ، وأولى بأفكاره عن النحو الذى ينبغى أن تختم عليه القصة (١٢١) . وقال له جوته مؤكداً ، « اننى بالتأكيد سامتثل لرغباتك المنصفة مااستطعت (١٢٢) . ولكنه اعترف لأكرمان ، بعد ثلاثة وثلاثين عاماً ، بأنه بذل قصاراه ليحمى قصته من تأثير شيلر (١٢٣) . وكان نقاد آخرون أقل تعاطفاً ؛ فوصف أحدهم الكتاب بأنه ماخور متجول ، وشكت شارلوته فون شتين قائلة « حين يتناول جوته العواطف السامية يقذفها دائماً ببعض الأقذار ، وكأنما يريد بذلك أن ينكر على الطبيعة البشرية أى طموح إلى القداسة »(١٢٤) . على أن القصة لم تستحق هذه الانتقادات العشوائية ، ففيها الكثير من الصفحات السارة ، ومازال فى استطاعتها أن تثير شوق القراء الذين تحرروا من ضجيج العالم وصخبه .

وفى ٢٣ مارس ١٧٩٦ ذهب شيلر إلى فايمار مرة أخرى ضيفا على جوته . هناك عملا معاً فى خدمة المسرح . وكان جوته مديراً صارماً ، يختار التمثيليات المراد عرضها ، ويدرب الممثلين . « فاستبعد كل ماكان كئيباً

أو ضعيفاً أو باكياً أو هش العاطفة ، كما استبعد تماماً كل ما كان مخيفاً أو مرعباً أو نابياً »(١٢٥) . أما الجمهور فاقتصر عادة على البلاط ، إلا حين يدعى بعض الطلاب من يينا . وقد علق أوجست فون شليجل على هذا الوضع تعليقاً لاذعاً « أن لألمانيا مسرحين قوميين — فيينا بجمهور من خمسين ألف مشاهد ، وفيمار من خمسين »(١٢٦) .

وعاد شيلر إلى يينا فى ١٢ أبريل ، وقد حفزه اتصاله المجدد بالمسرح لينصرف عن التاريخ والفلسفة والشعر العارض إلى الدراما . ولقد طالما فكر من قبل فى تأليف مسرحية عن فالنشتين ، فحثه جوته على الشروع فيها . وفى نوفمبر ذهب جوته إلى يينا ، وعاش حيناً فى اتصال يومى بشيلر . فلما عاد جوته إلى فيمار كتب إليه يقول « لايفتك أن تستغل أفضل أوقاتك ، حتى تمضى قدماً بمأساتك ، ليتسنى لنا أن نشرع فى مناقشتها »(١٢٧) .

وبينما كان شيلر عاكفاً على تأليف « فالنشتين ، شحذ روح المنافسة فى جوته نجاح « لويزه » (١٧٩٥) التى ألفها يوهان هينريش فوس قصة ريفية شعرية تمثل الحياة والعواطف الألمانية — فجرب هذا اللون المحبب ، ونشر فى ١٧٩٨ — « هيرمان ودوروتيا » . أما هيرمان فهو الإبن القوى السليم ، الخجول الهادىء ، لأب صفراوى المزاج وأم حنون يديران « الخان الذهبى » ومزرعة واسعة فى قرية قريبة من الراين . ويصل إلى علمهم أن مئات من اللاجئين قادمون من بلدة على التخوم استولى عليها الفرنسيون ، فتجهز الأسرة رزما من الثياب والطعام ، يحملها هيرمان إلى اللاجئين . ويجد بينهم صبية لها « نهدان بارزان » و « كاحلان رائعان »(١٢٨) تقدم للاجئين العون وأسباب الراحة . فيهيم بها ، وبعد شدائد لابد منها ، يصطحبها إلى بيته ويقدمها إلى أبويه بوصفها عروسه . ويروى الشاعر القصة فى أبيات متدفقة من البحر السداسى التفاعيل ، وصور الحياة الريفية الموجزة تضفى رواء على القصة ، وقد ابهجت النداءات لطرد الغزاة الفرنسيين الألمان المتحمسين لوطنهم والذين وجدوا مسرحيتى جوته « إفجينى » و « تاسو » غريبتين عويصتين . واكسبت الملحمة الصغيرة شعبية جديدة لمؤلف لم يظفر منذ « فرتر » إلا بقلة من القراء خارج دوقية ساكسى فايمار .

أما شيلر فكان نجمه فى صعود من ١٧٩٨ إلى ١٨٠٠ . ففى ٢٨ نوفمبر ١٧٩٦ كتب إلى كورنر يقول « مازلت أطيل الفكر جاداً فى « فالنشتين » ، ولكن العمل التعس مازال أمامى بلا شكل ولا نهاية . « وقد بدأ المسرحية نثراً ، ثم نحاها ، ثم استأنفها شعراً . وكان على الإلمام بالمادة من الدراسات التى قام بها ليؤلف كتابه « تاريخ حرب الثلاثين » ، ولكنها بلغت من الوفرة والتعقيد فى الشخوص والأحداث مبلغاً أكرهه على الإقلاع عن محاولة ضغطها فى خمسة فصول . وقرر أن يقدم للدراما بتمهيد (برولوج) من فصل واحد سماه « معسكر فالنشتين » ، وأن يقسم الباقى إلى تمثيليتين . وشرحت الأولى مؤامرة خلع القائد المتمرد ، ووازنتها بغرام ملتهب بين ابنة فالنشتين وابن زعيم فى المؤامرة . وإما الدراما النهائية والأساسية فستكون « موت فالنشتين » .

فلما قرأ جوته التمهيد « راعه التصوير الواقعى لمعسكر الجيش ، والإعداد البارع للتطورات اللاحقة ، فأصر على عرض « معسكر فالنشتين » على مسرح فايمار (١٢ أكتوبر ١٧٩٨) قبل أن يكتمل القسم الأول ؛ وربما كانت هذه الطريقة ذكية لإلزام الشاعر بالعكوف على مهمته . وفى مطالع ١٧٩٩ ذهب شيلر إلى فايمار لإخراج التمثيلية الأولى ، فعرضت أول مرة فى ٣٠ يناير ولقيت قبولا حسناً . وعاد إلى يينا وراح يعكف بشكل محموم على « موت فالنشتين » . ويكشف خطاب فى ١٩ مارس ١٧٩٦ عن الحالة النفسية لكاتب خرج لتوه من أتون الخلق « لقد طالما روعتنى اللحظة التى سأفرغ فيها من عملى ، مع شدة رغبتى فى مجىء تلك اللحظة ؛ والواقع أننى أشعر بأن حريتى الراهنة أسوأ من حالة العبودية التى كنت أعانيها إلى الآن . فقد ذهب الآن الجمهور الذى اجتذبنى حتى الآن وألزمنى هذا هذا الواجب ، وأنا أحس كأننى معلق فى الهواء إلى مالا نهاية » .

وجاء ما يكفى من الإثارة مع التدريبات والعرض الأول (٢٠ أبريل ١٧٩٩) لموت فالنشتين . وكان نجاحها كاملا . وحتى جمهور فايمار النقاد أحس أنه شهد رائعة من روائع العرض الدرامى . ووصل شيلر الآن

إلى قمة تطوره . لقد قصر الخطب وكثف الحركة ، ورسم كل الشخوص الهامة بحيوية وقوة ، وجمع كل خيوط الحبكة معاً فى الخاتمة الفاجعة — وهى ذلك الموت المخزى لرجل عظيم دمره الطمع والكبرياء اللذان لاحدود لهما . وأحس شيلر أن فى وسعه الآن أن يقف على قدم المساواة مع جوته (١٢٩) ، وكان على حق فى مضمار الدراما . وأضاف الدوق ماثتى طالر لمعاش شيلر ، ربما بناء على اقتراح من جوته ، ودعاه للإقامة فى فيايمار . وهكذا انتقلت الأسرة فى ٣ ديسمبر ١٧٩٩ إلى بيت قريب جداً من بيت جوته ، حتى أن الشاعرين ظلا حينا يلتقيان كل يوم (١٣٠) .

وكان شيلر خلال ذلك قد زج بنفسه فى مسرحية أخرى بعد أن حفزه انتصاره . كتب إلى كورنر فى ٨ مايو ١٧٩٩ يقول « شكراً لله ! لقد وقعت وقعت فعلا على موضوع جديد للمأساة » ودرس لهذه التمثيلية « مارياستيوارت » الخلفية التاريخية ، ولكن لم يدع أنه يكتب التاريخ ، فقد نوى أن يكتب تمثيلية يستخدم فيها التاريخ مادة وخلفية . فرتب من جديد الأحداث والتسلسل الزمنى ليخدما الاتساق والتأثير الدراميين ؛ وأكد على العناصر غير السارة فى خلق اليزابث ، وجعل من مارى بطلة مبرأة من كل دنس تقريباً ، ثم أتى بالملكتين وجهاً لوجه فى مواجهة درامية . والتاريخ لايعرف هذا اللقاء ، ولكن المشهد من أقوى المشاهد فى أدب المسرح . فلما أن عرضت فى فايمار فى ١٤ يونيو ١٨٠٠ انتشى شيلر مرة أخرى بنجاحه . وما وافى شهر يوليو حتى كان عاكفاً على تمثيلية « عذراء أورليان » . هنا أيضاً عدل التاريخ ليخدم هدفه : فبدلا من حرق العذراء صور جان دارك هاربة من آسريها الانجليز ، مندفعة إلى المعركة لتنقذ ملكها ، لاقية حتفها وهى منتصرة على ساحة القتال . وكان العرض الأول فى ليبزج (١٨ سبتمبر ١٨٠١) أعظم انتصار ظفر به شيلر طوال حياته .

أكان جوته يغار من صعود نجم صديقه فجأة على المسرح الألمانى؟ لقد اغتبط بهذا الصعود ، وظل بعد مضى ثمانية وعشرين عاماً يحكم على « موت

فالنشتين» بأنها «عظيمة حتى انك لاتجد لها نظيراً من نوعها» (١٣١). على أنه لم يرفع قدر منافسه فى الشعر إلى المقام الذى رفعه إليه فى الدراما ، فقد أحس أن شيلر كدرصفاء شعره بالفلسفة ، وأنه لم يملك قط ناصية موسيقى الشعر تماماً (١٣٢) . وحين أراد بعض المعجبين بشيلر أن يقدموا على مسرح فايمار تعبيراً عن تقديرهم له ، منع جوته هذا العرض بحجة أن فيه غلواً فى التباهى (١٣٣) . وفى يوليو ١٨٠٠ ذهب إلى يينا للخلوة والدرس ، بينما ظل شيلر فى فايمار ، ولكن فى ٢٣ نوفمبر كان شيلر لايزال يتكلم عن جوته بعبارات الصداقة التى لم تشبها شائبة . وكان رأيه فى جوته أنه «أعظم رجل موهوب منذ شكسبير . . . وطوال سنى صداقتنا الحميمة الست لم تخامرنى أدنى شك فى نزاهته . لقد اتصف بأسمى صفات الصدق والإحساس بالشرف ، وأعمق الجد فى السعى إلى ما هو حق وخير» (١٣٤) . ثم أردف «وددت لواستطعت أن أبرر جوته بمثل هذه الحرارة من جهة علاقاته الأسرية ! . . . فبسبب أفكار خاطئة عن مقومات السعادة البيتية ، وخوف منكود من الزواج ، انزلق إلى ورطة تضنيه وتشقيه فى بيته ذاته ، وهو أضعف وألين قلباً من أن يتخلص منها . ذلك مغمزه الوحيد .» وقد أبت زوجة شيلر كغيرها من سيدات فايمار أن تستقبل كرستيانه فى بيتها ، وندر أن ذكر شيلر كرستيانه فى اتصالاته القائمة بجوته .

على أن هذه الصداقة بين «الديوسقورين» — كما كانا يلقبان أحياناً — رغم ما شابها من صدوع ، أثبتت على الأقل أن الانسجام ممكن بين عبقرية كلاسيكية وأخرى رومانتيكية . كانا يبعثان الرسائل الواحد لصاحبه كل يوم تقريباً ، ويتناولان العشاء معاً مراراً ، وكثيراً ما وضع جوته مركبته تحت تصرف شيلر ، وأهدى شيلر «شطراً من الطلب الذى سلمه الساعة تاجر النبيذ الذى أتعامل معه» (١٣٥) . كتب جوته فى ٢٠ أبريل ١٨٠١ : «لنتمش معاً قرب المساء» ، وكتب فى ١١ يونيو «وداعاً ، بلغ تحياتى الرقيقة لزوجتك العزيزة ، واشرح صدرى عند عودتى (من جوتنجن) باطلاعى على بعض ثمرات جهدك» ؛ وفى ٢٨ يونيو ١٨٠٢ : «سيصلك مفتاح حديقتى وبيتى ؛ وأريدك أن تمضى هناك ما أمكنك من الأوقات

السعيدة » . وبعد موت شيلر باثنين وعشرين عاماً قال جوته لأكرمان ، «كان من حسن حظى . . . ان وجدت شيلر ، لأننا رغم اختلاف طبائعنا فإن ميولنا كانت تتجه إلى نقطة واحدة ، مما وثق صلتنا إلى حد استحال معه حقيقة على الواحد أن يعيش بدون الآخر» (١٣٦) .

وقد عوقهما المرض فى سنوات صداقتهما الأخيرة . فى الشهور الثلاثة الأولى من سنة ١٨٠١ كان جوته يشكو العصبية ، والأرق ، والأنفلونزا العنيفة ، والخراريج التى أقفلت عينيه حيناً . وفى إحدى مراحل مرضه طالت غيبوبته حتى توقعت فايمار موته . وفى ١٢ يناير كتبت شارلوته فون شتين لولدها فرتز تقول : لم أكن أدرى أن صديقى السابق جوته ما زال عزيزاً جداً على ، وأن مرضاً خطيراً قهره منذ تسعة أيام سيهزنى إلى الأعماق » (١٣٧) . وأخذت أوجست ، ابن كرستيانه ، إلى بيتها فترة لتخفف الأعباء التى ألقاها مرض جوته على خليلته التى كانت تبذل له العناية دون كلل . وكان إبلاله بطيئاً إليماً . كتب إلى شارلوته يقول « صعب على المرء أى يجد طريقه إلى العودة (١٣٨) .

وفى ١٨٠٢ اشترى شيلر بيتاً فى فايمار لقاء ٧,٢٠٠ جولدن ، وكان الآن ميسوراً بفضل الحصيلة المتزايدة من مسرحياته الممثلة والمنشورة ؛ وساعده جوته ، وكان وقتها فى يينا ، على بيع البيت الذى كان يسكنه هناك . وفى ١٧ مارس ١٨٠٣ أخرج شيلر « عروس مسينا » ، وهى محاولة — اعترف بها لنفسه (١٣٥) — لمنافسة مسرحية سوفوكليس « أوديب » بتصوير النضال بين أخوين يعشقان امرأة يتبين أنها أختهما مستعيناً بكورس مقسم . ولم تحز المسرحية الرضى . وجاز جوته بنكسة مماثلة حين أخرج فى ١٨٠٣ « الإبنة الطبيعية » (أى غير الشرعية) .

وكان بين المشاهدين لعرض من عروض « الابنة الطبيعية » سيدة لامعة هوائية هى جرمين نكر ، مدام دستال ، التى كانت تجمع مادة لكتابها « فن ألمانيا » وقد رأت شيلر أول مرة فى ديسمبر ١٨٠٣ :

« فى صالون دوق ودوقة فايمار ، فى جماعة جمعت بين الاستنارة

والنبالة . وكان يجيد قراءة الفرنسية ، ولكنه لم يتكلمها قط من قبل . وقد عبرت في شيء من التحمس عن تفوق نظامنا الدرامي على ما عداه من الأنظمة قاطبة ، فلم يرتض منازلتي دون أن يشعر بأى ضيق لما يجد من مشقة وبطء في التعبير عن نفسه بالفرنسية . . . وسرعان ما اكتشفت الكثير جداً من الأفكار خلال عقبة ألفاظه ، وراعتني جداً بساطة خلقه . . . فقد وجدته شديد التواضع ، . . . شديد الحيوية ، حتى لقد أخذت على نفسي العهد منذ تلك اللحظة بصداقة له ملؤها الإعجاب»(١٤٠) .

وقد أخذ شيلر جوته للتعرف إليها ! « إنها تمثل الثقافة الفكرية لفرنسا في نقائها . . . ولا يعيبها غير تدفقها المفرط . ولابد للمرء أن يحول نفسه إلى جهاز سمع مركز واحد لكي يتابعها »(١٤١) . وأتى بها إلى جوته في ٢٤ ديسمبر . وكتب جوته يقول : « ساعة لذيذة جداً . لم أجد فرصة للنطق بكلمة . أنها تجيد الحديث ، ولكن بإسراف شديد . » وكانت روايتها عن اللقاء مطابقة لروايته مع تغيير طفيف ، فقد قالت إن جوته أكثر من الكلام حتى لم تجد فرصة للنطق بمقطع واحد(١٤٢) . وقد كان كتابها بمثابة كشف أماط لفرنسا اللثام عن ألمانيا « موطن الفكر » . كتبت تقول « لايعقل ألا يكون الكتاب الألمان ، وهم أكثر الرجال في أوربا اطلاعاً وتفكيراً ، جديرين بلحظة انتباه تبذل لأدبهم وفلسفتهم »(١٤٣) .

واعتزم شيلر أن يسترد جمهوره الذى رفض « عروس مسينا » ، فاختار بناء على اقتراح جوته موضوعاً لدرامته التالية قصة وليم تل الشعبية : وسرعان ما عكف على الموضوع في لهفة وانفعال . قال جوته في ١٨٢٠ مستحضراً تلك الفترة ، «بعد أن جمع كل المادة الضرورية قعد للعمل ... ولم يبرح مقعده حتى فرغ من المسرحية . فإذا غلبه التعب أسند رأسه على ذراعه وأغفى هنيهة . . . وبمجرد أن يستيقظ كان يطلب . . . قهوة سوداء قوية ليظل يقظاً . وهكذا فرغ من المسرحية بعد ستة أسابيع(١٤٤) .

وقبل شيلر أسطورة شائعة — على أنها تاريخ — عن وليم تل قائد ثورة

السويسرين على النمسا فى ١٣٠٨ . كانت الثورة حقيقية ، وكذلك كان جسلر الوكيل النمساوى المكروه . وتروى الأسطورة أن جسلر تعهد لوليم تل بالعفو الكامل إذا أثبت براعته المشهورة فى استعمال القوس والسهام بإصابته تفاحة على رأس ولده . ووضع تل سهمين فى منطقته ، وأصاب التفاحة بأولهما . وسأله جسلر عم كان يريده بالآخر ؛ وأجاب تل « كنت أريدك أنت إن أصاب الأول ولدى » . ولقيت المسرحية الاستحسان فى فايمار فى ١٧ مارس ١٨٠٤ وفى كل مكان عرضت فيه بعدها بقليل ، وتبنتها سويسره جزءاً من تقاليدها القومية . فلما نشرت المسرحية بيع منها سبعة آلاف نسخة فى بضعة أسابيع . وأصبح اسم شيلر الآن أوسع ذيوعاً من اسم جوته .

ولكن أجله دنا ، إذ لم يبق له فى الحياة غير شهور . ففى يوليو ١٨٠٤ أصابته نوبة من المغص اشتدت حتى خشى طبيبه أن يموت وتمنى هو الموت. ثم تماثل للشفاء ببطء ، وشرع فى تأليف مسرحية أخرى اسمها « ديمتريوس» (« ديمترى الكاذب » الذى يذكره تاريخ روسيا) . وفى ٢٨ أبريل ١٨٠٥ رأى جوته آخر مرة ، ومن ذلك الاجتماع عاد جوته إلى بيته وأصيب هو الآخر بإصابة خطيرة بالمغص . وفى التاسع والعشرين بدأ مرض شيلر الأخير . كتب هينريش فوس يقول : « غارت عيناه فى رأسه ، وكان كل عصب فيه ينتفض متقلصاً » (١٤٥) . وائتمرت عليه توترات الجهد الأدبى الضارة ، والتهاب أمعائه ، واعتلال رئتيه . قال جوته فيما بعد « إن شيلر لم يسرف فى الشراب قط ، وكان شديد الاعتدال فيه ، ولكنه اضطر فى ساعات ضعفه البدنى إلى تنشيط قواه بالمسكر»(١٤٦) . وفى ٩ مايو قابل شيلر الموت بهدوء عجيب : فقد ودع زوجته وأطفاله الأربعة وأصدقائه ، ثم نام ، ولم يستيقظ ثانية . وأظهر تشريح جثته الرئة اليسرى وقد أتلفها السل تماماً ، والقلب منحلا ، والكبد والكلية والأمعاء كلها مصابة . وقال الطبيب للدوق « فى هذه الظروف لاتملك غير العجب من أن الرجل المسكين استطاع أن يعيش كل هذا العمر»(١٤٧) .

وكان جوته عندئذ فى حال من المرض لم يجرؤ معها إنسان على أن ينبئه بموت شيلر . وفى ١٠ مايو أفضت إليه كرستيانه بالنبأ وهى تنشج ، وكتب إلى تسلتر يقول «كنت أظن اننى أفقد حياتى أنا ، فإذا أنا أفتقد صديقاً كان نصف وجودى ذاته »[١٤٨] . ووصل بما بقى له من وجوده إلى تمام تحقيق ذاته .

* * *

obeikandl.com